الباب الثاني

الجهاد

الجهـاد اصطلاح إسـلامي معنـاه الشرعـي : القتال في سبيـل الله. ولا يُفهم للجهاد غير هذا المعنى منذ فـرض القتال بعد هجرة رسول الله ﷺ، من مكة إلى المدينة، و إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكـن قبل الهجـرة كـان الجهـاد يعني : تحمّـل الأذى، والصـبر على الشـدّة ، والدعوة، والتنظيم ، وذلك لأن المسلمين كانوا أقليةً في مكة، ولا يمكنهم غير ذلك. ولهذا بقي للجهاد معنى مجازي ، وهو الصبر ، وتحمّل الأذى. يقول رسول الله ﷺ : (السـاعي على الأرملة والمسكين كالمجـاهد في سبيل الله أو القائم الليـل الصائم النهار)[1]. وعن عبدالله بـن عمرو ، رضـي الله عنهـما، قال : قـال رجل للنبـي ﷺ : أجاهد ، قـال : (ألـك أبوان ؟) قال : نعم ، قال : (ففيهما فجاهد)[2]. وفي روايةٍ لمسلم : (ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما).

والمعنى المجازي مـأخوذ من المعنى اللغـوي وهو بذل الجهد ومغـالبة لطرفٍ آخر . ومـن هذا كان الجهد المبـذول من قبل الساعـي على الأرملة والمسكين ، والساعي على صحبة الأبوين جهاداً .

غير أن المرجفين يـأخـذون المعنـى المجازي، ويبتعـدون عـن المعنـى الشرعي رغم أنهم يتحدّثون عن الشرع - حسب دعواهم - فيستشهدون بالآيات والأحاديـث التي تدعو إلى بذل الجهد في الـدعوة، وإبلاغ آيات الله، والصبر عند الشدّة، ويبتعدون عن ذكر بذل النفس والقتال في سبيل

(١) متفق عليه (البخاري ٥٣٥٣، مسلم ٢٩٨٢) واللفظ للبخاري.
(٢) متفق عليه (البخاري ٦/ ٩٧ ، ٩٨ ، مسلم ٢٥٤٩).

لله. وذلك ليبقى المسلمون ضعفاء تتقاذفهم أمواج المهيمنين على العالم، وأعوانهم، وتعصف بهم رياح المتنفّذين، وإذا حدث ذلك ارتفعت مكانة المرجفين لما بذلوه من جهدٍ في سبيل إبعاد فكرة الجهاد الشرعي عن الساحة الإسلامية بما دوّنوا من مغالطاتٍ، وبما شوّهوا من أحداث التاريخ . إن ما يُسجّل هؤلاء لم يُرَد به وجه الله ، بل يراد به المصلحة والهوى .

الفصل الأول:

الجهاد في بدء الدعوة

بُعث رسول الله ﷺ في مكة ، وبدأ بالدعوة كما أُمر ، فبدأ بأهل بيته ، فأسلمت خديجة ، رضي الله عنها، كما أسلم عليّ، وزيد ، رضي الله عنهما، ثم أخذ بدعوة معارفه وأقرانه، فأسلم أبوبكر الصديق، رضي الله عنه، فجعل يدعو إلى الله ، فأسلم بدعوته عدد ، منهم : عثمان بن عفان، والزبير بن العوام ، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة ابن عبيدالله، ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة ، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وقدامة بن مظعون، وعبدالله بن مظعون، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد ، وعمير بن أبي وقاص ، وعبدالله بن مسعود و ... ثم دخل في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتُحدِّث به .

ثم إن الله عزّ وجلّ أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه ، وأن يُبادي الناس بأمره ، وأن يدعو إليه . وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين . قال الله تعالى ﴿**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين**﴾[1]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين. واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** .

(١) سورة الحجر : الآية ٩٤ .

فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾[1].

ووقف سادة قريش في وجه دعوة رسول الله ﷺ خوفاً من ذهاب تسلّطهم، وضياع شهواتهم، وفقدان سيادتهم، وتمسّكاً بعاداتهم الجاهلية واستكباراً في الأرض فكذبوا رسول الله ﷺ بماجاء ، واتهموه بالسحر ، والمسّ ، ووثبت كل قبيلةٍ على من أسلم من أبنائها، يُعذّبونه، ويفتنونه عن دينه. كما اتجهوا إلى العبيد والموالي الذين أسلموا يُذيقونهم مرّ العذاب. فنال بلال ، وعمار ، وصهيب الكثير من الأذى ، ولم تنج النساء من العذاب، وقد استشهدت سُميّة أُمّ عمّار تحت العذاب، وصبر المسلمون على كل ما أصابهم ، وكان صبرهم جهاداً.

لقد أطلقت قريش على رسول الله ﷺ منذ بداية أمر الدعوة لقب «صابىء » ، وكذا نعتت كلٌ من اتبعه ، وأسلم ، كما كانت قريش تلقبه أحياناً بالكاهن ، وأخرى بالساحر ، وأحياناً بالمجنون إذ حسب أفرادها أنه قد أصابه شيء من المسّ ، وظنّت أنه يريد الشهرة ، أو يبغي الزعامة ، أو يطلب الشرف والسيادة ، أو يعمل لمُلكٍ ثم لم تلبث أن تبّين لها أنه لا يُفكر بشيءٍ من هذا ، ومع ذلك استمرّت في الدعاية ضدّه وضدّ من تبعه من الناس . وكم يشقّ على الإنسان أن يسمع مثل هذا الكلام على إخوانه، وعلى من يُؤمن أنه رسول من عند الله بعثه لهداية البشر ، ومع ذلك فقد صبر المسلمون الأوائل على هذه الدعاية ، وكان صبرهم جهاداً.

لما رأى سادة قريشٍ أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ قد هاجروا إلى

(١) سورة الشعراء : الآيات ٢١٤-٢١٦.

الحبشة، وأصابوا بها أمناً ، وأن النجاشي قد منع من هاجر إليه منهم، وأن الإسلام قد بدأ ينتشر بين القبائل ، عندها اجتمع رجال قريشٍ ، وتداولوا فيما بينهم على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم ، وبني المطلب الذين يمنعون رسول الله منهم ، على أن لا ينكحوا إليهم ، ولا يُنكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، ثم كتبوا ذلك في صحيفة ، وتعاهدوا ، وتواثقوا على ذلك ، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة ، توكيداً على أنفسهم ، فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم ، وبنو المطلب إلى أبي طالب في شِعبه، واجتمعوا إليه عدا أبي لهب بن عبدالمطلب حيث خرج إلى قريشٍ، فأقام المسلمون على ذلك سنتين أو ثلاثاً، ولم يستطيعوا الخروج من الشِّعب إلا في الأشهر الحرم بسبب الحراسة عليهم ، حتى جهدوا ، ولا يصل إليهم شيء إلا سرّاً ، مُستخفياً به من أراد صلتهم من قريشٍ، يردّ عنهم غائلة الموت، وقد ساءت صحتهم، وبليت ملابسهم، وجفّت أثداء النساء المرضعات من الجوع والعطش، وشحبت الوجوه ، وذبلت الأبدان ، وكان رسول الله ﷺ يمرّ بينهم ، وهو يحمل أضعاف ما يحملون فيرى فوق هذه البطون الخاوية صدوراً عامرةً ممتلئةً بالثقة تُشكّل مجتمعاً متكافلاً . وصبر المسلمون حتى استيقظ ضمير بعض رجالات قريشٍ فمزّقوا تلك الصحيفة الجائرة . صبر المسلمون على ما أصابهم من جوعٍ، وظمأٍ وضيقٍ ، وكان صبرهم جهاداً.

وحُرم المسلمون المحصورون في شِعب أبي طالب من الزواج مدة حصارهم ، فأوضاعهم المادية لا تُساعدهم ، وأموالهم أصبحت عُرضةً للضياع ، وصحتهم عرضةً للتلف، ومنظر الفرد قد مال إلى الذبول، والنضارة قد ذوت، أذهبها الجوع، وأسرعت بها المحنة والبلاء، بل إن كل

ما يعتزّ به الفرد قد سار في طريق البوار ، فطوى الشباب من فتيانٍ وفتياتٍ ما في قلوبهم من عواطف النفس وفطرة الإنسان. وهذا أيضاً شأن الشبان الذين سجنهم ذووهم، ومنعوا عنهم كل شيءٍ، فأوضاعهم لاتختلف عن أوضاع إخوانهم الذين حوصروا في الشِّعب. وحين كان أهل الشِّعب ينزلون في الأشهر الحرم إلى مكة ويرى شبابهم صخبها ، فيذكرون حياتهم الماضية في ترفها بينما هم الآن بثيابهم البالية، وأجسامهم المقوسة قد أضناها الجوع والألم فيعافون نعيم شباب مكة أو الذي يتصوّرون أنه نعيم حسب المفهوم الجاهلي، وينظرون إلى المستقبل فإذا هذا النعيم الجاهلي ينقلب في أعينهم إلى جحيمٍ يتصوّرونه، ويتملاّه المسلم يوم يقف الناس لرب العالمين، فيخلد أهل هذا الجحيم الجاهلي في النار ، بينما يكونون هم في روضةٍ يُحبرون، وفي الجنة خالدون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، فيرون روضة الإيمان في ذلك الشِّعب البائس، في تلك المنطقة الموحشة التي لايسمع فيها إلا بكاء الرضّع الجياع، وصياح الأطفال مع بعض التأوهات يطغى عليها دعاء الله وكلمات التوحيد تنطلق من أفواه المسلمين. وقد صبر المسلمون على ما كانوا يشعرون من ظلمٍ وحربٍ نفسيةٍ، وكان صبرهم جهاداً.

وغدت قريش على من أسلم من رجالها، واتّبع محمداً رسول الله ﷺ فنالت منه ، إذ وثبت كل قبيلةٍ على من كان منها من المسلمين ، فكانوا يحبسونهم ويعُذّبونهم بالضرب ، والجوع ، والعطش برمضاء مكة إذا اشتدّ الحرّ . وكان العذاب أشدّ وأقسى على المستضعفين من العبيد والموالي. فكان أمية بن خلف يُخرج بلالاً إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتُوضع على ظهره، ثم يقول له :

لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبداللات والعزّى ، فيقول بلال ، وهو في ذلك البلاء : أحد .. أحد ، وبقي على هذه الحال حتى اشتراه وأعتقه أبوبكر ، رضي الله عنه. وكذلك كان فعل بني مخزوم بآل ياسر ، ويمرّ بهم رسول الله ﷺ وهو لا يملك لهم إلا دمعة تغرورق في عينه، وحسرة تخفق في كبده ، فيقول لهم ، وهو حزين : (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)[1]. وقُتلت سُميّة ، وصبر زوجها ياسر ، وابنها عمار ، وصبر معهم المسلمون . وكان أبو جهل عمرو بن هشام إذا سمع برجلٍ أسلم ذهب إليه ، فإن كان له شرف ومنعة أنّبه وأخزاه، وهدّده وإن كان ضعيفاً ضربه وآذاه ، وأغرى به . ولم يقتصر الأمر على هؤلاء الرجال من المسلمين بل نال الجميع ما نالهم من العذاب ، حتى رسول الله ﷺ، فإضافةً إلى الإهانة التي أصابته منهم من تكذيبٍ ، وسخريةٍ ، وهزءٍ، يقال : إنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من المشركين إلا كذّبه وآذاه لا حرّ ولا عبد، إضافةً إلى هذا فقد همّوا بقتله عدّة مراتٍ ، ولكن الله حفظه . وألقوا الشوك في طريقه، والتراب على رأسه ، وفتات العظام، وسلا البعير على ظهره فلا يستطيع الارتفاع من السجود حتى تأتي ابنته فاطمة ، وترفع عنه سلا البعير ، وضربه عدد من أفراد قريشٍ ، فلم يُنقذه من أيديهم إلا أبو بكرٍ الصديق ، رضي الله عنه ، وهو يقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ... ولم يكن باستطاعة المسلمين الردّ على المشركين إلا بتلاوة آيات من كتاب الله تنال من المشركين وتتوعدهم بالنار تارة بصفاتهم وأخرى بالتلميح إذ تُشير الآيات الكريمة إلى حادثةٍ مُعيّنةٍ فيُعرف أشخاصها.

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٣/ ٣٨٨-٣٨٩، والطبراني في الأوسط، والمجمع ٩٢٠/ ٢٩٣ وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي.

وقد صبر المسلمون على كل ما نالهم من الأذى البدني ، وكان صبرهم جهاداً.

كان المسلمون في مكة في بداية الدعوة يُشكّلون أقليةً ، والأقلية جهادها الصبر والتنظيم ، وقد صبرت ، وكانت الآيات من كلام الله تتنزّل على رسوله تدعوه إلى الصبر ، وتحثّه عليه ، وتُبيّن له أن هذا شأن الأنبياء والرسل وأصحاب الدعوات وأتباعهم ﴿ **فاصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلاً** ﴾[1]. و﴿ **ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر** ﴾[2] و ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم** ﴾[3] و ﴿ **ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله** ﴾[4]. ﴿ **ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** [5] ﴾. ﴿**وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط** ﴾[6]. ﴿ **ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾[7]: وعن خبّاب بن الأرتّ قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسّد بُردةً له في ظلّ الكعبة، قلنا له : ألا تستنصر لنا؟ ألاتدعو لنا؟ قال: (كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض ، فيُجعل فيه ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشقّ باثنتين ، وما يصدّه ذلك عن دينه ، ويُمشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليُتمّنّ هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لايخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[8].

(١) سورة المزمل الآية ١٠. (٢) سورة المدثر الآية ٦-٧. (٣) سورة الأحقاف الآية ٣٥.
(٤) سورة الأنعام الآية ٣٤. (٥) سورة النحل الآية ٩٦. (٦) سورة آل عمران الآية ١٢٠.
(٧) سورة إبراهيم الآية ١٢ (٨) رواه البخاري.

هـذا الصبر ، أما التنظيـم فقد كـان المسلمـون كتلةً واحـدةً، لها رأس واحد هو رسول الله ﷺ ، تعيش مفاصلةً مجتمعهـا مفاصلةً شعوريةً، يحيا أفرادها بعضهم مع بعضٍ ، ويُساعـد بعضهم بعضاً ، فهذا يرسل سرّاً إلى أخيه مـا يحتاج إليه، وهذا يشتري أخـاه من الرقيق ويعتقـه، ويلتقون سراً بعيدين عـن أعين قريشٍ، يقرؤون مـا نـزل مـن وحي ، ويُوجّههم رسول الله ﷺ كما يلتقـي الأفراد المسلمـون في بـعض الأسر كـي تـأخذ النسـاء دورها ، كلقاء آل عدي (سعيد بـن زيد ، وزوجته فاطمة بنت الخطاب ، وعبدالله النحام) ويُوجّههم خبّاب بن الأرتّ . وبقي ذلك ثلاث سنواتٍ، ثم أظهر رسول الله ﷺ الدعوة ، ولكن بقيت سرية لقاءات الأسر ، وذلك مدة العهد المكـي، ولم يكن أحدهم ليتصرّف تصرّفـاً فردياً، كأن يقـوم بردّ فعل ضدّ أحد الطغاة فيقتله، وكان هذا أمراً ميسوراً وسهلاً، غير أن ذلك قد يـؤدّي بضرب الدعـوة ضربةً قاصمـةً ، والقضاء عليهـا، فأتبـاعها لا يزالون أقليةً، وهذا الانضباط التام دليل التنظيم الدقيق. كما كانت تكفي إشارة من رسول الله ﷺ إلى أحد أصحابه ليقوم بقتل أكبر رؤوس الطغيان في قريشٍ ، ولكن لم يكن هـذا ليحدث لأنه ليس من أسلوب الدعوة ولا من منهجها مادام أتباعها أقليةً.

فجهاد الأقليات وبداية الدعوة إنما هو الصبر على الأذى ، وبيان الحق بالقلم واللسان، والتمثّل بأخـلاق الإسلام ، وعدم القيام بردود الأفعال ، والتنظيم الدقيق كي يكون الأمر منضبطاً ، والتصرّف صحيحاً.

وحتى يتحقّق الانضبـاط التام ، ونضمن عدم القيـام بردود الأفعال لا بدّ من مجاهدة النفس التي تتمثّل في تعلم الحق ، والعمل بما تعلّمت ، وأن تدعـو إليه، وأن تتحمّـل الأذى في سبيل ما تـدعو إليـه ، ثم عـدم اتباع

الشيطان فيما يـوسوس إلى صـاحب النفـس ، ويُزيّـن له في القيـام بردود الأفعال وذلك لأن الشيطان يعمل على أن تنزل النكبات بالدعوة وأن تحلّ المصائب بأهلها. كما أن الشيطان يعمل على دفع الإنسان للسير في درب الغواية كي يصبح موضع نقد لمخالفة فعله إلى مايدعو إليه.

فجهـاد النفس أمـر واجـب لدى المسلـم سـواء أكـان يعيش ضمـن أقليات أم في مجتمعٍ مسلم .

الفصل الثاني:

جهاد الدولة المسلمة

رأى رسول الله ﷺ أن الدعوة مهددة مادام أتباعها لا يزالون يعيشون أقليةً وسط مجتمعٍ كافرٍ، لذا لابدّ من العمل على تأسيس قوّةٍ تحمي الدعوة، وتعمل على نشرها. وأن مكة قد تعنّت سادتها، وتمادوا في غيّهم، وزادوا في طغيانهم، وغالوا في تمسّكهم بجاهليتهم استكباراً واندفاعاً وراء شهواتهم، وحرصاً على مصالحهم، وخشيةً على مكانتهم - حسب تصوّرهم - وقد ختمت الغواية والكبرياء على سمعهم وأبصارهم غشاوةً فلا يسمعون إلا من خلال ما يوسوس لهم الشيطان، ولايرون إلا من خلال ماتهوى الأنفس لذا فكّر رسول الله ﷺ، بالانتقال إلى الحبشة، وأشار إلى أصحابه بالهجرة إليها فهاجروا، غير أنهم قد وجدوا أن ظروف الحبشة لم تكن مواتيةً لتكون تلك المنطقة قاعدةً لانطلاق الدعوة، فالأحباش على خلاف مع النجاشي، وقد خرجوا عليه، ولكن انتصر عليهم، والأساقفة على تعصّبٍ شديدٍ، والمهاجرون قلّة لا تُقيم مجتمعاً متكاملاً، واللغة تُشكل عائقاً، لذا فقد عاد أكثرهم إلى مكة، مع أنهم قد وجدوا الأمن والدعم من النجاشي، وبقيت مجموعة مع جعفر بن أبي طالبٍ، رضي الله عنه، برعاية النجاشي «أصحمة» الذي أسلم، ثم ارتحلت هذه الجماعة إلى دار الهجرة في المدينة في السنة السابعة، فوصلت

إليها والمسلمون في خيبر يفتحونها.

ولما كانت الحبشة لم تُناسب لتكون قاعدةً لانطلاق الدعوة لذا فكّر رسول الله ﷺ بالطائف، وسار إليها ، غير أنه وجد فيها ما وجد في مكة فرجع إلى بلده حزيناً أسفاً ، ولم يستطع دخولها حتى أجاره المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف.

وأراد رسول الله ﷺ أن يستفيد من موسم الحج فيعرض نفسه على القبائل التي تقصد مكة لتشهد الموسم، أو لتحضر أسواق عكاظ ، وذي مجنّة ، فأخذ يعرض نفسه ، ويدعو هذه القبائل القادمة ، ولكن قريشاً لم تكن غافلةً عن هذا فكان عمه أبو لهب يسير وراءه، ويردّ أقواله ، ومن القبائل من كان يردّ ردّاً قبيحاً كبني حنيفة، ومنهم من يردّ ردّاً ليناً كبني عامر بن صعصعة.

وشاءت إرادة الله أن يلتقي رسوله ﷺ في أحد المواسم ، وهو موسم العام الحادي عشر من البعثة مع جماعةٍ من أهل يثرب ، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال بعضهم لبعضٍ: يا قوم ، تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدّكم به يهود ، فلا تسبقنّكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدّقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم ، بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك. فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك ، وواعدوا رسول الله ﷺ العام المقبل في الموسم.

بيعة العقبة الأولى : استدار العام، وجاء الموسم، وأقبل الناس إلى

الحج ، وكان بين حجاج يثرب أربعة عشر رجلاً ، اثنا عشر من الخزرج ، واثنان من الأوس ، وقد التقوا حسب الموعد مع رسول الله ، ﷺ ، عند العقبة ، وأسلموا ، وبايعوا رسول الله ﷺ. وعرفت هذه البيعة ببيعة النساء ، إذ لم يكن القتال قد فُرض ، ولم يكن المجتمع الإسلامي قد وُجد . ولهذه التسمية « بيعة النساء» معنى دقيق ، وهو أن الجهاد الأساسي هو القتال. وأن الدعوة بالبيان بالقلم واللسان ، والصبر على الأذى جهاد لاشك غير أنه دون الأول ، وإن كان كلاهما قائماً مادام الإسلام موجوداً، غير أن الدعوة ، والصبر ، والسلوك مرتبط بالأقليات ، كما أنه متربط مع الجهاد القتالي بالمجتمع الإسلامي.

وأرسل رسول الله ﷺ مع مسلمي يثرب مصعب بن عمير يُقرئهم القرآن، ويُعلمهم الإسلام، وقد عُرف هناك باسم « المقرىء».

بيعة العقبة الثانية : رجع مصعب بن عمير إلى مكة قبل الموسم، وجاء الموسم ، وخرج حجاج يثرب مسلمين ومشركين ، وفي مكة واعد مسلمو يثرب رسول الله ﷺ ، العقبة من أوسط أيام التشريق ليلاً بعد الثلث الأول منه ، وتمّ اللقاء ، وكانوا ثلاثةً وسبعين رجلاً ، اثنين وستين من الخزرج ، وأحد عشر من الأوس ، ومع الرجال امرأتان . ولم يكن مع رسول الله ﷺ إلاعمّه العباس ، وكان لايزال على دين قومه ظاهراً جاء يستوثق لابن أخيه ، فقال العباس: يا معشر الخزرج ، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه، ومنعةٍ في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسلّموه وخاذلوه بعد الخروج

به إليكم ، فمن الآن فدعوه فإنه في عزٍّ ومنعةٍ من قومه وبلده.

قالوا : قد سمعنا ما قلت، فتكلم يـا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلم رسـول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغّـب في الإسلام ، ثم قـال : (أشترط لربي أن تعبدوه وحـده، ولا تشركوا بـه شيئاً، ونفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم). فتقّدم البراء ابـن معرور فـأخـذه بيده ، ثـم قـال : نعم ، والـذي بعثـك بالحق نبيـاً، لنمنعنّك ممـا نمنع منـه نساءنـا، فبايعنـا يا رسـول الله ، فنحن والله أبنـاء الحروب، وأهل السلاح ورثناها كابراً عن كابر .. فاعترض القول أبو الهيثم ابن التيّهان ، والبراء يُكلّم رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبـالاً، وإنا قاطعوها: ــ يعني يهود ـ فهل عسيـت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال : (بل الدم الدم، والهدم الهدم [1]، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم). وكانت البيعة، وكانت بيعة الحرب ، حرب كل مـن يقف في وجه صـاحب الدعوة ، رسـول الله ﷺ وما يدعـو إليه ، وهذا هو الجهاد .

وأمر رسـول الله ﷺ أصحابه في مكـة بالانتقال إلى يثـرب ، والالتحاق بإخوانهم المسلمين هناك ، وفراراً بدينهم ، فـأخذوا بالانتقال والهجرة، ثم هـاجر رسـول الله ﷺ واجتمـع المسلمون بعضهـم مـع بعض ، وتشكّـل المجتمع الإسلامي.

(١) عبارة تقولها العرب عند الحلف والجوار : أي دمي دمكم، وهدمي هدمكم ، فما هدمتم من الدماء هدمته أنا.

المجتمع الإسلامي : اجتمع المسلمون في يثرب التي أصبحت تحمل اسم المدينة « مدينة رسول الله ﷺ» والتفّوا حول رسولهم الكريم، وأصبحوا القوة الأساسية في المدينة، تشكلّت دار الإسلام ، وهي التي تُطبّق شريعة الله ، وإن لم يكن سكانها جميعاً من المسلمين، وبالفعل فقد كان يسكن المدينة بعض القبائل اليهودية، وهم ثلاث قبائل : بنو قينقاع، وبنو النضير ، وبنو قريظة. كما أن بعض سكان المدينة من العرب قد بقوا على شركهم ، لم يُسلموا بعد حتى تُوِّجت قوة المسلمين بالنصر المؤزّر يوم بدر فأظهروا الإسلام ، فكانوا منافقين فالمجتمع كان في المدينة منقسماً ، فاليهود يدسّون الدسائس ، والمنافقون يتحرّكون سراً مع كل ناعقٍ ، والمشركون يتربّصون الدوائر . وإن كان يحلو لبعضهم أن يُؤكّد تماسك ذلك المجتمع تأييداً لإمكانية معايشة اليهود والحياة معهم بسلام ، في هذا الوقت الذي يُدعى فيه للصلح مع اليهود والاستسلام لهم، والحياة معهم بسلامٍ في المنطقة بعد اغتصاب منطقة فلسطين من بلاد الشام وتشريد أهلها، وارتكاب الجرائم المستمرة، والعمل على التسلط على المنطقة ، والسيطرة على أهلها اقتصادياً ، وسياسياً ، وعسكرياً. وقول هؤلاء، ومغالطاتهم، وافتراء الكذب، ومخالفة عقيدتهم إرضاءً لسادتهم، وابتغاء العزّة عندهم ﴿ **بشّر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً. الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً** ﴾[1]. يقول أحدهم « غير أن ظروفاً جديدةً نشأت مع استقراره ﷺ في المدينة ، اقتضت قيام المسلمين بواجباتٍ إضافيةٍ في هذا المجال. ويمكن تلخيص هذه الظروف في الأمرين التاليين:

(١) سورة النساء : الآيتان ١٣٨ - ١٣٩ .

أولها : نشأة أول مجتمعٍ إسلامي متماسكٍ، ضمن نظام دولةٍ وافية الشروط والأركان . فقد تألّف من المهاجرين الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ومن الأنصار الذين استقبلوهم فيها ، ومن اليهود الذين قرورا أن يعايشوا المسلمين في أمنٍ وسلامٍ ، مجتمع متماسك يضبطه دستور، ونظام دولةٍ ، ويرعاه مسؤول عن حماية هذا المجتمع ونظامه.

أما المجتمع فيتمثل في ذلك الجمع من الناس : المهاجرين والأنصار واليهود الذين اجتمعوا وقرروا التعايش في سلامٍ ، في المدينة »[1].

فأي تماسكٍ هذا؟ وأي تعايشٍ هذا ؟ إنه لم يقل هذا أحد من الناس منذ عهد رسول الله ﷺ إلى اليوم . غيرأن ابتغاء العزّة من غير الله يختم على السمع وعلى البصر غشاوةً تجعل صاحبها يغالط على الناس ، ويُغالط نفسه.

كيف يمكن لمسلم أن يقول هذا وهو يقرأ في كتاب الله؟

﴿ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾[2].

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾[3].

﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدي القوم الظالمين ﴾[4].

﴿ لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾[5].

---

(١) الجهاد في الإسلام : الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ٢٢-٢٣.

(٢) سورة البقرة : الآية ١٠٠.

(٣) سورة البقرة : الآية ١٢٠.

(٤) سورة المائدة : الآية ٥١.

(٥) سورة المائدة : الآية ٨٢.

وإن قيام دار الإسلام يقضي وجود دار الحرب. وقد نشأت دار الإسلام في المدينة بقيادة رسول الله ﷺ وكانت الدنيا كلها دار حربٍ ولابدّ من وقوع أحداث بين دار الإسلام وما جاورها من دار الحرب، وستكون الأحداث هناك بين مكة والمدينة للصراع الذي كان قائماً في مكة بين المسلمين وبين قومهم من المشركين، فلما انتقل المسلمون إلى المدينة ووجدوا دعماً من بعض أهلها وهم الأنصار لذا فقد أصبح الأنصار والمهاجرون إليهم في خندقٍ واحدٍ يُواجه خندق المشركين من قريشٍ.

ولما كانت طريق قوافل قريش في تجارتها إلى الشام تمرّ على مقربةٍ من المدينة، وليس لقريشٍ عن التجارة بدّ لذا لابدّ من أن تقع أحداث بين الفريقين، وكان على رسول الله ﷺ أن يُسوّي أمور جبهته الداخلية، وقد ذكرنا أن المدينة كان يسكنها:

١- **الأنصار**: من الأوس والخزرج الذين أسلموا، واتّبعوا رسول الله ﷺ.

٢- **المهاجرون** الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وقد أقاموا مع الأنصار، لأنهم خرجوا من ديارهم تاركين أموالهم، ومتاعهم، وأملاكهم، وهم بحاجةٍ إلى دعم إخوانهم.

٣- **المنافقون** الذين أظهروا الإسلام عندما وجدوا قومهم قد دانوا به، وذلك كي لا يفقدوا مركزهم.

٤- **المشركون** من الأوس والخزرج الذين بقوا على ما كانوا عليه من الشرك، وكانوا قلّةً نادرةً.

٥- **اليهود** بقبائلهم المختلفة، ولهم دورهم السياسي والاقتصادي في

المدينة قبل الهجرة.

٦- وكان الخلاف مستحكماً بين الأوس والخزرج ، وكانت بينهم أيام وحروب في الجاهلية، وآخرها يوم « بُعاث» ولايزال في النفوس شيء منها. كان على رسول الله ﷺ أن يُوحّد كلمة المسلمين ليكونوا يداً واحدةً ضدّ الفئات الأخرى . فبنى المسجد فكان للمسلمين عامةً، وأصبحت لقاءاتهم فيه، وانتهت أمكنة اللقاءات التي كانت للأحياء وللأُسر ، فالتقت الجماعات، وفي المسجد يلتقون برسول الله ﷺ، يسألونه، ويتلقّون منه . ثم كانت المؤاخاة بين المسلمين مهاجريهم وأنصاريهم، وبذا أصبح المسلمون كتلةً واحدةً، وإخوةً مؤمنين . ثم التفت ﷺ إلى يهود فوادعهم[١]. وبذا أصبحت المدينة كلها مسلمها وكافرها يداً واحدة أمام الأعداء من الخارج. أما المنافقون فلا يظهرون على الساحة لتظاهرهم بالإسلام ، وأما المشركون فلا يُؤبه بهم لقلّتهم. إذ أن قريشاً ربما تُفكرّ في القيام بعملٍ ضدّ المدينة، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فعل ذلك رسول الله ﷺ حتى يمكن تطبيق النظام داخل هذه المدينة المنبعثة من جديدٍ . وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم. وقد جاء فيه : بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبيﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريشٍ ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريشٍ على رِبْعتهم[٢] يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم[٣] بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عوف على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم[٤] الأولى، كل طائفةٍ تفدي عانيها بالمعروف والقسط

(١) الموادعة : شبه المصالحة والتصالح، والمسالمة والمتاركة. وتوادع القوم : أعطى بعضهم بعضاً عهداً .
(٢) الرِبْعة : الحال التي جاء الإسلام وهم عليها. (٣) العاني : الأسير . (٤) المعاقل : الديات.

بين المؤمنين. وبنو ساعدة على رِبْعتهم يتعاقلون معا قلهم الأولى، وكل طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الحارث على رِبْعتهم يتعاقلون معا قلهم الأولى، وكل طائفةٍ تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو جشم على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفةٍ تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداءٍ أو عقلٍ . وأن لا يُحالف مؤمنٍ دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[2] ظلمٍ، أو إثمٍ، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافرٍ، ولا ينصر كافراً على مؤمنٍ، وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لايسالم مؤمن دون مؤمن في قتالٍ في سبيل الله إلا على سواءٍ وعدلٍ بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين ينبىء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل

(١) المُفْرَح : المثقل بالديون.

(٢) الدسيعة : ما ينال منهم من ظلم.

الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وأنه لايجير مشرك مالاً لقريشٍ ولانفساً، ولا يحول دونه على مـؤمنٍ، وإنه من اعتبط[1] مؤمناً قتلاً عن بيّنـةٍ فإنه قـود به إلا أن يرضـى وليّ المقتول، وإن المؤمنين عليه كافةً، ولايحلّ لهم إلا قيام عليـه. وإنه لا يحلّ لمؤمـنٍ أقرّ بما في هـذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً أو يؤويـه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنـة الله وغضبه يوم القيـامة، ولا يـؤخذ منـه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتـم فيه مـن شـيءٍ فـإن مردّه إلى الله عـزّ وجلّ، وإلى محمدٍ ﷺ. وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإنَّ يهود بني عـوف أمـة مـع المؤمنين، لليهود دينهـم، وللمسلمين دينهـم، مـواليهـم وأنفسهم إلا من ظلـم وأثم، فإنه لا يـوتغ[2] إلا نفسـه، وأهل بيتـه؛ وإن ليهود بنـي النجار مثل ماليهـود بني عوف؛ وإن ليهود بنـي الحارث مثل ماليهود بني عوف؛ وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف؛ وإن ليهود بني جشم مثـل ما ليهود بني عوف؛ وإن ليهود بنـي الأوس مثل ما ليهود بني عـوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثـل ماليهود بني عـوف؛ إلا من ظلم وأثِم، فـإنه لا يوتغ إلا نفسـه، وأهل بيته، وإن جفْنَة بطـن من ثعلبة كأنفسهـم، وإن لبني الشُّطيبة مثـل مالبني عـوف؛ وإن البرّ دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بـإذن محمد ﷺ، وإنـه لا ينحجز على ثـأر جرحٍ، وإن مـن فتك فبنفسه فتـك، وأهل بيته، إلا مـن ظلم، وإن الله على أبـرّ هذا؛ وإن على اليهود نفقتهـم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على مـن حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم، وإن

(١) اعتبط مؤمناً: قتله دون جنايةٍ منه توجب قتله. (٢) يوتغ: يهلك.

لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة؛ وإن الجار كالنفس غير مُضارٍّ ولا آثم، وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ، وإلى محمدٍ رسول الله ﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره[1]، وإنه لا تُجار قريش ولامن نصرها؛ وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دُعوا إلى صلحٍ يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم؛ وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة [2].

وبهذا أصبح أهل المدينة جميعاً على اختلاف فئاتهم يداً واحدةً ضدّ الأعداء وضدّ الخارجين على تطبيق النظام ، ويبدو من هذه الموادعة والمعاهدة :

١- أن للجماعة الإسلامية شخصية دينية وسياسية، ومن حقّها أن تؤمّن المطيع ، وتعاقب المفسد .

٢- الحرية الدينية مكفولة للجميع مالم يحصل من طرف ظلم أو إثم.

٣- على سكان المدينة من مسلمين وغيرهم أن يتعاونوا مادياً، وعسكرياً، وأدبياً، وعليهم أن يردّوا متساندين أي اعتداء قد يُوجّه لمدينتهم.

٤- رسول الله ﷺ هوالمسؤول الأول عن سكان المدينة جميعهم.

(١) أي أن الله وعباده المؤمنين على الرضا به.

(٢) سيرة ابن هشام.

٥- الأمة تضم الجماعة التي تعتقد عقيدة واحدة بغضّ النظر عن الجوار والقرابة ، أو الأرض ، أو النسب ، أو المصلحة ، أو اللغة ، أو الهوى ، أو المستوى الحضاري ، أو النظام لا قتصادي و... فهذا لا شيء أمام العقيدة ،

فالمسلمون يؤلفون أمةً واحدةً ، ويُؤلّف اليهود أمةً واحدةً على الرغم من الجوار ، والمدينة الواحدة واللغة والأحلاف السابقة.

٦- إن هذا الكتاب « كتاب الموادعة» قد كُتب قبل أن تُفرض الجزية، وإذ كان الإسلام ضعيفاً، وكان لليهود إذ ذاك نصيب في المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين ، كما شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحروب.

ولكن أنّى لليهود أن يحفظوا عهداً، أو يرقبوا ذِمّةً ﴿ **أوَ كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون**﴾[1]. ولكن الذين يبتغون عندهم العزّة وعند الذين يُمهدون لهم، ويُنفّذون أوامر سادتهم يُحاولون إظهارهم على غير حقيقتهم، وعلى غير ما وصفهم الله سبحانه تعالى، فيكتبون جملاً مبتورةً، ويحذفون فقراتٍ، فيقول أحدهم : « وأما الدستور والنظام، فيتمثلان بالوثيقة التي أملاها رسول الله ﷺ على أصحابه، بل على ذلك الجمع المتآلف كله، فيه اليهود بقبائلهم الثلاث.

وتتألّف الوثيقة من بضع وسبعين بنداً، صيغت كأحدث ماتُصاغ به الدساتير الحديثة اليوم. أول هذه البنود ينصّ قائلاً : (المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحقهم أمة واحدة، من دون الناس)، وآخر بندٍ فيها يقول : (كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدثٍ أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد رسول

(١) سورة البقرة : الآية ١٠٠.

الله ﷺ)[1].

ونلاحظ : ١- لم يبيّن الفرق بين المؤاخاة بين المسلمين وبين موادعة يهود.

٢- لم يذكر بنود الوثيقة كاملةً حتى لا تظهر فكرة الأمة الواحدة جليةً.

٣- ذكر البند الأول، ولم يُوضّحه بما جاء بعده حتى يتوهّم القارىء أن اليهود قد أُلحقوا بالمسلمين.

٤- ذكر البند الأخير ليُرسّخ في الذهن أن اليهود قد وافقوا ردّ الأمر إلى الله ورسوله.

٥- وأكّد في البداية أو أعاد التأكيد على الجمع المتآلف بين المسلمين واليهود.

وهكذا تكون المغالطات والتلاعب بالنصوص والكلمات.

الوقائع : كانت حياة اليهود في المجتمع الإسلامي في المدينة كلها نقض للعهود، وخيانات للمسلمين، وكان اليهود بؤرةً فاسدةً، يُخشى منها، وما يقع منها، وما ينتج عنها. وقد وقع منهم وقائع كثيرة منها :

١- نصبت أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة بغياً وحسداً وضغناً، لما خصّ الله سبحانه وتعالى به العرب من أخذه رسوله منهم ﴿ **ولما جاء هم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين بئس ماشروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من**

(١) الجهاد في الإسلام للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

عباده فباءوا بغضبٍ على غضبٍ وللكافرين عذاب مهين ﴾[1]. ولعل في حديث إسلام عبدالله بن سلام، رضي الله عنه، مايوضّح ذلك، وكان حبراً عالماً، قال : لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته، واسمه، وزمانه الذي كنا نتوكّف [2] له، فكنت مسرّاً لذلك، صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما نزل بقُباء في بني عمرو بن عوف، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلةٍ لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعتُ الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبّرتُ، فقالت لي عمتي، حين سمعت تكبيري : خيّبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى ابن عمران قادماً ما زدت ! قال : فقلت لها : أي عمّة ، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بُعث بما بُعث به . قال : فقالت : أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نُخبر أنه يُبعث مع نفس الساعة؟ قال : فقلت لها : نعم، قال : فقالت : فذاك إذن. قال : ثم خرجت إلى رسول الله،ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي ، فأمرتهم فأسلموا .

قال : وكتمت إسلامي عن يهود ، ثم جئت رسول ﷺ فقلت له : يا رسول الله، إن يهود قوم بُهت ، وإني أُحبّ أن تُدخلني، وتغيّبني عنهم، ثم تسألهم عني ، حتى يخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني. قال : فأدخلني رسول الله ﷺ بعض بيوته، ودخلوا عليه، فكلّموه وساءلوه ثم قال لهم : أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا. قال : فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم، فقلت لهم: يا معشرٍ يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في

(١) البقرة ٨٩-٩٠. (٢) نتوكف : نتوقع .

التوراة باسمه ، وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأومن به، وأُصدّقه وأعرفه، فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بي. قال : فقلت لرسول الله ﷺ : ألم أُخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهت، أهل غدرٍ وكذبٍ وفجورٍ، قال : فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث وحسن إسلامها [1].

وفي حديث مخيريق مثل آخر على تلك العداوة من يهود على رسول الله ﷺ. كان مخيريق حبراً عالماً، وكان رجلاً غنياً كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد في علمه، وغلب عليه إلفُ دينه، فلم يزل على ذلك، حتى إذا كان يوم أُحدٍ ، وكان يوم أُحدٍ يومَ السبت، قال : يا معشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمدٍ عليكم لحق. قالوا: إن اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت لكم. ثم أخذ سلاحه، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأُحدٍ، وعهد إلى من وراءه من قومه : إن قتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد ﷺ يصنع فيها ما أراه الله. فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتل [2].

وفي شهادة صفية، رضي الله عنها، مثال ثالث. قال ابن إسحاق : وحدّثني عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم، قال : حُدّثت عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت : كنت أحبَّ ولد أبي إليه ، وإلى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه. قالت : فلما قدِم رسول الله ﷺ المدينة ، ونزل قُباء، في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي، حيي بن أخطب، وعمّي أبو ياسر بن أخطب، مُغلّسين. قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت : فأتيا كالّين كسلانين

(١) سيرة ابن هشام. (٢) المصدر السابق نفسه.

ساقطين يمشيان الهوينى. قالت : فهششت إليهما، كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم ، قالت : وسمعت عمي أبا ياسر ، وهو يقول لأبي، حيي بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله ؛ قال: أتعرفه وتُثبته؟ قال : نعم؛ قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت [1].

هذه العداوة الواضحة من يهود لرسول الله ﷺ وهل يمكن أن يكون المجتمع متماسكاً إذا كان هؤلاء اليهود جزءاً منه ؟ وهل يمكن أن يكونوا جزءاً من مجتمعٍ يقوده رسول الله ﷺ؟

٢- مرّ أحد اليهود ، وهو شاس بن قيسٍ، وكان شيخاً قد عسا[2]، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ، من الأوس والخزرج. في مجلسٍ قد جمعهم، يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأى من أُلْفَتِهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فقال : قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرارٍ . فأمر فتىً شاباً من يهود كان معهم، فقال : اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعاث، وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار .

ففعل. فتكلّم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الرُّكب، أوس بن قيظي، أحد بني حارثة بن الحارث، من الأوس وجبّار بن صخر ، أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال

(١) سيرة ابن هشام . (٢) عسا : أسن وولى.

أحدهما لصاحبه : إن شئتهم رددناها الآن جذَعة [1]، فغضب الفريقان جميعاً، وقالوا : قد فعلنا موعدكم الظاهرة - والظاهرة : الحرّة - السلاح السلاح. فخرجوا إليها. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال : يامعشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بين قلوبكم؛ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوّهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ، سامعين ومطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوّ الله، شاس بن قيسٍ، فأنزل الله في شاس بن قيسٍ وما صنع : ﴿ **قل يا أهل الكتاب لمَ تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون. قل يا أهل الكتاب لمَ تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون**﴾ [2].

وأنزل الله في أوس بن قيظي ، وجبّار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شاس بن قيس من أمر الجاهلية :: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين. وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقدهدي إلى صراط مستقيم**﴾ [3].

٣- ولما أسلم عبدالله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من يهود معهم، فآمنوا وصدّقوا ورغبوا في

(١) جزعة : فتية ، المعنى رددنا الآخر إلى أوله. (٢) سورة آل عمران : الآية ٩٨-٩٩.
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٠٠-١٠١ .

الإسلام ، ورسخوا فيه، قالت أحبار يهود، أهل الكفر منهم : ما آمن بمحمدٍ ولا اتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره. فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿**ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون**﴾[1].

فأي مجتمع متماسكٍ واليهود جزء منه؟ لقد طُبعوا على الوقيعة بين الناس.

٤- وكان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود ، لما كان بينهم من الجوار والحلف، فأنزل الله تعالى فيهم ينهاهم عن مباطنتهم: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط**﴾[2]. هذه أخلاق اليهود وهذه نظرتهم للمسلمين، وحقدهم عليهم ، وكيدهم لهم، فهل يمكن أن يُشكّلوا معهم مجتمعاً متماسكاً كما يتخيّل بعض الناس، ويدعون إلى ذلك؟.

٥- ولما أصاب الله عزّ وجلّ قريشاً يوم بدرٍ جمع رسول الله ﷺ يهود في سوق بني قينقاع ، حين قدم المدينة، فقال : يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشاً ؛ فقالوا له : يا محمد ، لا يغرنّك

(١) سورة آل عمران : الآيات ١١٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآيات ١١٨-١٢٠.

من نفسك أنك قتلت نفراً من قريشٍ، كانوا أغماراً[1] لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا[2].

فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد. قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار** ﴾[3].

٦- كانت قبيلة بني قينقاع أول قبائل اليهود نقضاً لعهد المسلمين، وكان من أمرهم أن امرأةً من العرب قدمت بَجلَب[4] لها، فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغٍ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها، فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشرّ بينهم وبين بني قينقاع. فحاصرهم رسول الله ﷺ، حتى نزلوا على حكمه . فقام إليه عبدالله بن أبيّ بن سلول، حين أمكنه الله منهم، فقال : يا محمد، أحسن في موالي، وكانوا حلفاء الخزرج، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال : يا محمد أحسن في موالي، فأعرض عنه ﷺ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ : أرسلني، وغضب رسول الله ﷺ، حتى رأوا لوجهه ظللاً[5]. ثم قال : ويحك ! أرسلني؛ قال : لا والله لا أرسلك حتى تُحسن في مواليّ، أربعمائة حاسرٍ ، وثلاثمائة دارعٍ قد منعوني

(١) أغمار : جمع غمر ، وهو الذي لم يجرب الأمور. (٢) سيرة ابن هشام .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٢-١٣. (٤) الجَلَب : كل ما يجلب إلى الأسواق ليباع فيها.
(٥) الظلل : جمع ظلة وهي السحابة والمعنى تغير لون وجهه لشدة غضبه.

من الأحمر والأسود ، تحصدهم في غداةٍ واحدةٍ، إني والله امرؤ آخشى الدوائر ، فقال رسول الله ﷺ : هم لك. وفكّ رسول الله ﷺ الحصار عنهم، بعد أن استمرّ خمسة عشر يوماً ، ثم أمر بإجلائهم عن المدينة بعد أن نزلوا على حكمه ، فأجلي الرجال والذراري،. وأُخذ السلاح والعتاد غنيمةً للمسلمين.

وقال ابن إسحاق : وحدّثني أبي إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد ابن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ، تشبّث بأمرهم عبدالله بن أُبّي بن سلول، وقام دونهم. قال : ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان أحد بني عوف لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبدالله بن أُبيّ، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرّأ إلى الله عزّ وجلّ، وإلى رسول الله ﷺ من حلفهم، وقال : يا رسول الله ، أتولّى الله ورسوله ﷺ، والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم. قال : ففيه وفي عبدالله بن أُبيّ أُنزل ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولَّهم منكم فإنَّه منهم إنَّ الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرضٌ يسُارعون فيهم يقولون نخشى أَن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أَمر من عنده فيصبحوا على ما أَسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين أمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أَعمالهم فأصبحوا خاسرين . يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليُّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم**

راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين أمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾[1].

٧- لما وصل خبر معركة بدر إلى كعب بن الأشرف، أحد رجالات يهود، قال : أحق هذا؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الرجال من قريش؟ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظهرها.

فلما تيقّن عدوّ الله الخبر ، خرج حتى قدم مكة، وجعل يُحرّض على رسول الله ﷺ، ويُنشد الأشعار ، ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أُصيبوا ببدرٍ. ثم رجع كعب بن الأشرف فشبّب بنساء المسلمين حتى آذاهم. ثم أرسل له رسول الله ﷺ من قتله.

٨- بعد غزوة أُحدٍ خرج رسول الله ﷺ، إلى يهود بني النضير يستعينهم في دية رجلين من بني عامرٍ للجوار الذي كان رسول الله ﷺ، عقد لهما، وكان بين بني النضير وبني عامرٍ حلف. فلما أتاهم رسول الله ﷺ، قالوا : نعم، يا أبا القاسم ، نُعينك ما أحببت، مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعضٍ ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ورسول الله ﷺ ، إلى جنب جدارٍ من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرةً فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحّاش بن كعب، أحدهم، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليُلقي عليه الصخرة، كما قال ، ورسول الله ﷺ، في نفرٍ من أصحابه ، فيهم أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، رضوان الله عليهم.

---

(١) سورة المائدة : الآيات ٥١-٥٦ .

فأتى رسول الله ﷺ، الخبر من السماء بما آراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة. فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه؛ فقال : رأيته داخلاً المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ، حتى انتهوا إليه ﷺ، فأخبرهم الخبر ، بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيّؤ لحربهم والسير إليهم. واستعمل على المدينة عبدالله بن أم مكتوم، ثم سار بالناس حتى نزل بهم فتحصّنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ، بقطع النخيل والتحريق فيها، فنادوه : أن يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد ، وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها. وبعث المنافقون إلى بني النضير : أن اثبتوا وتمنّعوا، فإنا لن نُسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم. فتربّصوا ذلك من نَصْرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجليهم، ويكفّ عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلْقة [1]، ففعل . فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف [2] بابه، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به. فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام. فكان أشرافهم من سار منهم إلى خيبر : سلاّم بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وحيي بن أخطب، فلما نزلوها دان لهم أهلها [3]. إنهم استقلّوا بالنساء والأبناء، وخلّوا الأموال لرسول الله ﷺ فكانت لرسول الله ﷺ خاصةً يضعها حيث يشاء، فقسّمها رسول الله ﷺ على المهاجرين دون الأنصار ، إلا أن سهل بن حنيف ، وأبا دجانة

(١) الحلقة : السلاح ، وربما اختصت بالدروع.
(٢) نجاف : الخشبة التي بأعلى الباب، وهي عتبته.
(٣) سيرة ابن هشام.

سِماك بن خرشة ذكرا فقراً فأعطاهما رسول الله ﷺ. ونزلت سورة الحشر كاملةً في بني النضير.

٩- إن اليهود هم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، يوم الخندق، إذ خرج نفر من بني النضير حتى قدموا على قريشٍ بمكّة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يامعشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه فأنزل الله: ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً....** ﴾[1].

ثم خرج أولئك النفر من يهود، حتى جاءوا غطفان، من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه.

وخرج عدوّ الله حُيي بن أخطب من بني النضير حتى أتى كعب بن أسد القرظي، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه، وعاقده على ذلك وعاهده، فلما سمع كعب بحُيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فناداه حُيي: ويحك يا كعب افتح لي؛ قال: ويحك ياحُيي! إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً، فلست بناقضٍ ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً؛ قال: ويحك! افتح لي أكلمك؛ قال: ما أنا بفاعلٍ؛ قال:

(١) سورة النساء.

والله إن أغلقت دوني إلا عـن جشيشتك[1] أن آكل معك منهـا؛ فأحفظ الرجل[2]، ففتح لـه؛ فقـال : ويحك يا كعب! جئتـك بعزّ الدهـر وببحرٍ طام ، جئتك بقريشٍ على قادتها وسـادتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رُومـة، وبغطفان على قادتها وسادتها، حتـى أنزلتهم بذنـب نَقْمى إلى جانـب أحدٍ، قد عـاهدوني وعاقـدوني على أن لا يبرحوا حتى نستـأصل محمداً ومن معـه. فقال له كعب : جئتني والله بذلّ الـدهر، وبجهام[3] قد هَرَاق ماءه، فهو يُرعد ويُبرق ليس فيـه شيء، ويحك يا حُيي دعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمدٍ إلا صدقاً ووفـاءً، فلم يزل حُيي بكعب يفتله في الذروة والغارب، حتى سمح له، على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً : لئن رجعت قريش وغطفان ، ولم يصيبـوا محمداً أن أدخـل معك في حصنـك حتى يُصيبني ما أصابك . فنقض كعـب بـن أسد عهده، وبرىء مما كان بينه وبيـن رسـول الله ﷺ.

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر ، وإلى المسلمين، بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ بـن النعمان، وهو يومئذٍ سيد الأوس ، وسعد بـن عبادة بن دُلَيم، أحد بنـي ساعدة بن كعـب بن الخزرج، وهو يومئـذٍ سيد الخزرج ، ومعهما عبدالله بن رواحة أخو بني الحارث بن الخزرج، وخوّات بن جبير ، أخو بني عمرو بـن عوف ، فقال : انطلقوا حتى تنظروا أحـقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقّاً فالحنوا لي لحناً أعرفه، ولا تفتّوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس. فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث مـا بلغهم عنهم ، فيما نالوا من رسول

(١) الجشيشة : طعام يصنع من القمح المجروش . (٢) أحفظ الرجل : أغضبه .
(٣) الجهام : السحاب الخفيف الذي لا مطر فيه .

الله ﷺ ، وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمدٍ ولا عقد ، فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه [1]، وكان رجلاً فيه حدّة ، فقال له سعد ابن عبادة : دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة. ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلّموا عليه ثم قالوا : عضل والقارة، أي : كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه ؛ فقال رسول الله ﷺ الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين . وعظم عند ذلك البلاء ، واشتدّ الخوف، وأتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظنٍّ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال مُعتِّب بن قشير ، أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن أن يذهب إلى الغائط.

وحتى قال أوس بن قيظيّ ، أحد بني حارثة بن الحارث : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة من العدو، وذلك عن ملأٍ من رجال قومه ، فائذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا، فإنها خارج من المدينة، فأقام رسول الله ﷺ، وأقام عليه المشركون بضعاً وعشرين ليلةً ، قريباً من شهر ، لم تكن بينهم إلا الرِّمِّيا[2] بالنبل والحصار [3]. واشتدّ على الناس البلاء.

ثم وقع الخلاف وسوء الظنّ بين الأحزاب بعد مرور نُعيم بن مسعود عليهم، والحديث معهم ، كما هو معروف. ثم أرسل الله عليهم الريح وجنوداً لم يروها، فوقع الخوف، ورأى سيد قريشٍ ، أبوسفيان أنه لا بدّ من الرحيل، فقال : يا معشر قريشٍ، إنكم، والله ، ما أصبحتم بدار مقامٍ، لقد

(١) كان بنو قريظة في الجاهلية حلفاء الأوس قوم سعد بن معاذ .
(٢) الرِّمِّيا : المراماة . (٣) سيرة ابن هشام .

هلك الكراع والخفّ ، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي ننكره، ولقينا من شدّة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قِدْر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا إني مرتحل [1]. وانشمر الأحزاب راجعين إلى بلادهم.

واتجه رسول الله ﷺ مع المسلمين إلى بني قريظة لتأديبهم على خيانتهم في نقض العهد ، والتحالف مع الأحزاب على قتال المسلمين .

وقدّم رسول الله ﷺ، علي بن أبي طالبٍ برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس. فسار علي بن أبي طالبٍ، حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالةً قبيحةً لرسول الله ﷺ فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال : يا رسول الله ، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث؛ قال (لم؟ أظنّك سمعت منهم لي أذى ؟) قال : نعم، يا رسول الله؛ قال :(لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً). فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم، قال : (يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله ، وأنزل بكم نقمته ؟). قالوا : يا أبا القاسم ماكنت جهولاً.

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلةً حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب .

وقد كان حُيي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم، حين رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه، فلما أيقنوا بأن رسول الله ﷺ غير منصرفٍ عنهم حتى يناجزهم ، قال كعب بن أسد لهم : يا معشر يهود ، قد نزل من الأمر ماترون، وإني عارض

(١) المصدر السابق نفسه.

عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم ؛ قالـوا : وما هي ؟ قال : نُتابع هذا الرجل ونُصدّقـه، فوالله لقد تبيّن لكم إنه لنبيّ مرسـل، وإنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكـم وأبنائكم ونسائكم؛ قالوا : لا نُفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل بـه غيره؛ قال : فإذا أبيتم عليّ هذه، فهلمّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمدٍ وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف، لم نترك وراء نا ثقلاً، حتى يحكـم الله بيننا وبين محمدٍ، فإن نهلك ولم نترك وراءنـا نسلاً نخشـى عليه، وإن نظهـر فلعمـري لنجدنّ النسـاء والأبناء؛ قالـوا : نقتل هؤلاء المساكين ! فما خير العيش بعـدهم ؟. قال : فإن أبيتـم عليّ هذه، فإن الليلة ليلـة السبت، وإنه عسى أن يكـون محمد وأصحابه قـد أمنونا فيها، فانزلـوا لعلّنا نصيب من محمدٍ وأصحـابه غِرّةً ؛ قالوا : نُفسد سبتنا علينا، ونُحْدث فيه مالم يُحْدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابـه مالم يخف عليك من المسخ ! قال : مـا بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلةً واحدةً من الدهر حازماً.

ثـم إنهـم بعثـوا إلى رسـول الله ﷺ : أن ابـعث إلينـا أبـا لبـابـة بـن عبدالمنذر ، أخا بني عمرو بـن عوف، وكانوا حلفاء الأوس ، لنستشيره في أمرنا، فـأرسله رسول الله ﷺ، إليهم، فلما رأوه ، قام إليه الـرجال، وجهش إليه النساء والصبيـان يبكون في وجهه، فرقّ لهم ، وقـالوا له : يا أبـا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمدٍ؟ قال: نعم، وأشار بيده على حلقه، أي: إنه الذبح. قال أبو لبـابة ؛ فوالله مازالت قدماي من مكـانها حتى عرفت أني قـد خنـت الله ورسـوله. ثم انطلق أبـو لـبابة على وجهـه، ولم يأت رسول الله ﷺ، حتـى ارتبط في المسجـد إلى عمودٍ مـن عمـده ، وقال : لا أبـرح مكاني هذا حتـى يتوب الله عليّ مما صنعت، وأُعاهـد الله : أن لا أطأ بني

قريظة أبداً، ولا أُرى في بلدٍ خنت الله ورسوله فيه أبداً.

فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وكان قد استبطأه ، قال (أما إنه لوجاءني لا ستغفرت له، فأما إذ قد فعل فما أنا بالذي أُطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه. ونزلت توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ في السحر ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاًعسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم**﴾[1]. فسار الناس إليه ليطلقوه، فقال : لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ، هو الذي يُطلقني بيده. فلما مرّ عليه رسول الله ﷺ، خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.

فلما أصبح بنو قريظة نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس، فقالوا : يا رسول الله ، إنهم موالينا دون الخزرج ، وقد فعلتَ في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت – وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم عبدالله بن أبيّ بن سلول، فوهبهم له – فلما كلمته الأوس ، قال رسول الله ﷺ : (ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟)، قالوا : بلى، قال رسول الله ﷺ : (فذاك إلى سعد بن معاذ) ، فلما جاء سعد أخذ الأوس يقولون له : يا أبا عمرو أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ، إنما ولاّك ذلك لتُحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعدٍ أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تُقتّل الرجال ، وتُقسم الأموال ، وتُسبى الذراري والنساء. قال رسول الله ﷺ، لسعدٍ : (لقد حكمت فيهم

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٢ . قاله مجاهد انظر تفسير القرطبي، وابن كثير.

بحكم الله من فوق سبعة أرقعة) [1].

وضربت أعناقهم وفيهم حُيي بن أخطب، وكعب بن أسدٍ رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، وأُتي بحُيي بن أخطب عدوّ الله، مجموعة يداه إلى عنقه بحبلٍ، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك. ثم جلس فضُربت عنقه.

ثم إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين. واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه ريحانة بنت عمرو بن خُنانة، وقد أسلمت. وأنزل الله تعالى في أمر الخندق ، وأمر بني قريظة ما جاء في سورة الأحزاب.

٩- تجمّع اليهود في خيبر بعد أن ارتحل إليها بعض بني قينقاع، وأكثر بني النضير ، ومن هناك أخذوا يحيكون المؤامرات، ويُدبّرون الخطط ، والحيل لضرب المسلمين ، ونال أذاهم المسلمين، فقرر رسول الله ﷺ غزوهم في عقر دارهم بعد أن تمّ صلح الحديبية مع قريش، وهدأت بذلك الجبهة الجنوبية.

١٠- بعد القضاء على بني قريظة بقي في المدينة بعض اليهود على شكل أسرٍ ، أو مجموعاتٍ صغيرةٍ، لم يُشاركوا في غدر بني قريظة لذا لم يتعرّض لهم المسلمون، وإنما تركوهم يعيشون في كنفهم آمنين مطمئنين على أموالهم ، وأملاكهم، وأعراضهم، في ذمة الله، وذمة رسوله ، وعهده. وكانت حالة هؤلاء اليهود المادية جيدةً ، وأكثر المسلمين يستدين منهم، وما أن شعر هؤلاء اليهود برغبة المسلمين في غزو خيبر حتى ثار حقدهم ،

---

(١) الأرقعة : السموات .

وبدت ضغائنهم، وظهرت عصبيتهم على الرغم من قلّتهم، وحياتهم في أمنٍ وطمأنينةٍ، وأن ثروتهم إنما جمعت تحت رعاية المسلمين وفي حمايتهم، فأخبروا يهود خيبر بتحركات المسلمين أولاً، وأرادوا إضعاف معنويات المسلمين بالتحدّث عن قوة اليهود في خيبر ، ثم رغبوا في إحراج المسلمين بطلب ديونهم والاستعجال في ذلك. فقد روى الواقدي أن أحد جند المسلمين إلى خيبر قال : فلما تجهّزنا نريد خيبر ، لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحدٍ من المسلمين حق إلا لزمه، وكان لأبي الشحم أحد اليهود عند عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي خمسة دراهم في شعيرٍ أخذه لأهله، فلزمه، فقال : أجّلني فإني أرجو أن أقدم عليهم فأقضيك حقك – إن شاء الله – إن الله عزّ وجل قد وعد نبيه خيبر أن يغنمه إياها، وكان عبدالله بن أبي حدرد ممن شهد الحديبية، فقال : يا أبا الشحم، إنا نخرج إلى ريف الحجاز (يعني خيبر) في الطعام والأموال، فقال أبو الشحم : أتحسب أن قتال خيبر مثل من تلقونه من الأعراب ، فيها – والتوراة – عشرة آلاف مُقاتل، فقال : ابن أبي حدرد : أي عدوّ الله تخوّفنا بعدوّنا وأنت في ذمتنا وجوارنا، والله لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهودي، وأخبرته بما قال أبو الشحم، فسكت رسول الله ﷺ، ولم يرجع إليه شيئاً، إلا أني رأيت رسول الله ﷺ يُحرّك شفتيه بشيءٍ لم أسمعه، فقال اليهودي لرسول الله ﷺ : يا أبا القاسم هذا قد ظلمني، وحبسني بحقي، وأخذ طعامي، قال رسول الله ﷺ : (اعطه حقَّه). قال عبدالله : فخرجت فبعت أحد ثوبي بثلاثة دراهم، وطلبت بقية حقه، فقضيته، ولبست ثوبي الآخر ، وكانت عليّ عمامة فاستدفأت بها، وأعطاني سلمة بن أسلم ثوباً آخر في ثوبين مع المسلمين،

ونفلني الله خيراً ، وغنمت امرأةً بينها وبين أبي الشحم اليهودي قرابة فبعتها منه بمال [1].

وفُتحت خيبر - بإذن الله - لرسول الله ﷺ . وتمّ الاتفاق على أن يخلي اليهود الحصون كلها، ويُسلّموا ما فيها إلى المسلمين، إضافةً إلى أسلحتهم، وأن يجلوا عن خيبر إلى الشام وأن يأخذوا من الأموال ما يمكن حمله، وأن يدلّوا على كنوزهم ، وأن لا تُسبى الذراري على الرغم من أن البلاد تُعدّ قد فتحت عنوةً إذ انهارت كل مقاومةٍ لليهود ، ولكن رسول الله ﷺ قد تسامح معهم. ثم إن الرسول ﷺ، قد سمح لليهود بالبقاء في خيبر ليعملوا كأجراء في الأرض مقابل جزءٍ من المحصول يتفق عليه الطرفان، واتفقوا على أن يكون لليهود نصف الثمار ، ويحق للمسلمين أن يُخرجوا اليهود منها في أي وقتٍ شاءوا.

١١ - وبعد غزوة خيبر أهدت زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مِشْكم شاةً مَصْلِيّةً [2]، وقد سألت أي عُضوٍ من الشاة أحبّ إلى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها : الذراع، فأكثرت فيها السمّ، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ، تناول الذراع فلاك منها مضغةً ، فلم يُسِغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور ، قد أخذ منها كما أخذ رسول او ﷺ؛ فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله ﷺ فلفظها، ثم قال : (إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم) ، ثم دعا بها، فاعترفت ، فقال : (ما حملك على ذلك؟). قالت : بلغتَ من قومي مالم يخف عليك، فقلت : إن كان ملكاً استرحتُ منه، و إن كان نبياً فسيُخبر . قال : فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بِشر من أكلته التي أكل.

(١) الواقدي : الجزء الثاني ص ٦٣٤ . (٢) مصلية : مشوية .

قال ابن إسحاق : وحدّثني مروان بن عثمان بن أبي سعيد المعلّى ، قال : كان رسول الله ﷺ ، قد قال في مرضه الذي تُوفّي فيه، ودخلت أم بشر بنت البراء بن معرور تعوده : (يا أم بشر ، إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع أخيك بخيبر). فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ، مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة[1].

١٢ - كان اليهود يعدّون أنفسهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحبّاؤه ، يقول الله تعالى : ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير** ﴾[2]. ﴿ **قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين** ﴾[3]. هذه نظرة الكبر والغطرسة الفارغة عند اليهود هي التي تجعلهم لا يستطيعون التعايش في مجتمعٍ ، حيث كانوا مكروهين من كل من يعيش معهم، لأنهم يتصوّرون أنه ليس لديهم مانع من أكل أموال الآخرين ظلماً بل يرون أن هذا من حقهم ﴿ **ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطارٍ يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾[4].

١٣ - أقام يهود خيبر في بلدتهم التي أصبحت في حوزة المسلمين وضمن أملاكهم ، وإن كان اليهود فيها ولكن أجراء، وقد أظهروا الطاعة ،

---

(١) سيرة ابن هشام . (٢) سورة المائدة : الآية ١٨ .
(٣) سورة الجمعة : الآية ٦ . (٤) سورة آل عمران : الآية ٧٥.

ولم ير المسلمون بهم بأساً في معاملتهـم، يُظهرون ذلك، غير أنهم في الواقع يضمـرون حقداً، ويخفـون شرّاً ، فإذا انفـردوا بمسلـمٍ قتلوه، وعملـوا على إخفاء جريمتهـم، ولا يتركون فرصةً يمكنهم فيهـا النيل من المسلمين إلا فعلوا إن ظنّوا أنهم يستطيعون إخفاءها ، فعدوا في عهد رسول الله ﷺ على عبدالله بـن سهلٍ، أخـي بني حـارثة، فقتلـوه، فاتهمهـم رسول الله ﷺ ، والمسلمون عليه. وكان قد ذهب إلى خيبر ليجلب تمراً ، ولم يَعُد ، فوجد في عينٍ قد كُسرت عنقه، ثم طُرح فيها ، فعلِم أهلـه فأخذوه ودفنوه ، وقدموا على رسول الله ﷺ ، فذكروا له شـأنه. فكتب رسول الله ﷺ، إلى يهود : إنه قد وُجد قتيل بين أبياتكم فأدّوا ديته، فكتبوا إليه يحلفون بالله ما قتلوه، ولا يعلمون له قـاتلاً. فأدّى رسول الله ﷺ، الـديّة لأهله من عنـده، ورأى أنه لأبدّ من إخراج أهل الكتاب من جزيرة العرب.

١٤- عن أبي عبيدة بن الجراح ، رضي الله عنه ، قـال : آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ : (أخـرجوا يهود أهـل الحجاز ، وأهل نجـران من جـزيرة العرب)[١].

وعن عائشـة ، رضي الله عنـها ، قالت : آخر مـا عهد رسول الله ﷺ أن قال : (لا يُتْرك بجزيرة العرب دينان)[٢].

عن جابر ، رضي الله عنه، أن عمـر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، قال : قال رسـول الله ﷺ : (لئن عشت لأُخرجـنّ اليهود والنصارى من جـزيرة العرب حتى لا أترك فيها إلا مسلماً)[٣].

---

(١) رواه أحمد والبيهقي.
(٢) رواه أحمد .
(٣) رواه مسلم .

وروى نافع مولى عبدالله بن عمر ، عن عبدالله بن عمر ، قال : خرجت أنا ، والزبير ، والمقداد بن عمرو إلى أموالنا بخيبر نتعاهدها، فلما قدمنا تفرّقنا في أموالنا، قال فعُدي عليّ تحت جنح الظلام، وأنا نائم على فراشي، ففدِعت يداي من مرفقيّ، فلما أصبحت استصرخ عليّ صاحباي ، فأتياني فسألاني : من صنع هذا لك؟ فقلت : لا أدري ، قال : فأصلحا من يديّ ، ثم قدما بي على عمر ، رضي الله عنه ، فقال هذا عمل يهود ، ثم قام في الناس خطيباً فقال : أيها الناس، إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أن نُخرجهم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبدالله عمر، ففدعوا يديه، كما قد بلغكم على عدوهم على الأنصاري[1] قبله، لا نشكّ أنهم أصحابه ، ليس هناك عدو غيرهم ، فمن كان له مال بخيبر فليلحق به، فإني مخرج يهود ، فأخرجهم[2].

هذا وضع اليهود في المدينة منذ وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً حتى وفاته ﷺ بل حتى أخرجهم عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، من الحجاز حياة كلها غدر وخيانة وحبك مؤامرتٍ، وإثارات القبائل ضدّ المسلمين، وتحزيب الأحزاب للقضاء على المسلمين في المدينة. فأي مجتمع متماسكٍ ومتآلفٍ هذا كان يجمع المهاجرين والأنصار واليهود ، يتكلم عنه إنسان ناهيك أن يكون مسلماً يتحدّث عن علم ودرايةٍ حسبما يزعم ، لكنه الهوى الذي يجمّل في عين صاحبه حب الظهور، والرغبة في المكانة فيقلب الحقائق ، ويُغالط في الكتابة حتى يظنّ أن الناس لا يُدركون مغالطاته، ويَقبلون كلامه، وخاصةً إن كان يعيش في الحمى ، ولا يستطيع أحد أن يردّ عليه أو يُواجهه بالحقائق إلا إذا كان

(١) يقصد : عبدالله بن سهل.

(٢) سيرة ابن هشام .

يريد مغادرة الدنيا بأسلوبٍ وحشيٍ هذا بالإضافة إلى أن لليهود اليوم مركزاً دولياً بسبب الدعم الذي يلقونه، والتأييد الذي يحصلون عليه، ومحاولة فرض سلطانهم على المنطقة ، لذا أخذ أصحاب الهوى يتلاعبون في حوادث التاريخ ليحصلوا على الرضا . وينالون المكانة عند الذين يمهّدون لليهود ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً**﴾[1] . ﴿ **أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون**﴾[2] .

١٥ - وفوق هذا كله فقد غضب الله على اليهود ولعنهم، وذكر عداوتهم الشديدة للمؤمنين ، وأنهم والمشركون أشدّ الناس عداوةً لمن آمن. وكذلك فقد غضب عليهم رسول الله ﷺ، ولعنهم ، فهل يمكن لهؤلاء الذين غضب الله عليهم ورسوله أن يؤلّفوا مع المسلمين مجتمعاً متماسكاً كما يقول من قال .

● يقول تعالى : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾[3] . ورأي الجمهور أن المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين هم النصارى ، وجاء ذلك مفسراً عن النبي ﷺ في حديث عدي بن حاتم وقصة إسلامه، أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ، والترمذي في جامعه، وشهد لهذا التفسير أيضاً قوله سبحانه في اليهود : ﴿ **وباءوا بغضبٍ من الله** ﴾[4] و﴿**غضب الله عليهم**﴾[5]،[6] .

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٤٣ .
(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٣ .
(٣) سورة الفاتحة : الآيتان ٦-٧ .
(٤) سورة البقرة : الآية ٦١ .
(٥) سورة المجادلة : الآية ١٤ .
(٦) تفسير القرطبي

● ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾[1].

● ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون . ولما جاء هم كتاب من عندالله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاء هم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله عل الكافرين. بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين ﴾[2].

● ﴿ قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبة عندالله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل ﴾[3].

● ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ﴾[4].

● ﴿ لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بماعصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾[5].

﴿ لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾[6].

وآيات كثيرة من كتاب الله تذكر غضب الله ولعنه لليهود لكفرهم وما هم عليه من الطبائع السيئة والمعاملات الدنيئة ، منها الكفر بكل ما يُنزّل الله من فضله على من يشاء من غيرهم، بل وإنكار ما يأتيهم من عندالله، والجحود بآيات الله، وقولهم على الله مالم يتصف به ابتداعاً من عند

(١) سورة البقرة : الآية ٦١ . (٢) سورة البقرة : الآيات ٨٨-٩٠ (٣) سورة المائدة : الآية ٦٠
(٤) سورة المائدة : الآية ٦٤ (٥) سورة المائدة : الآيتان ٧٨-٧٩. (٦) سورة المائدة : الآية ٨٢

أنفسهم، وعدم التناهي فيما بينهم عن المنكرات التي يفعلونها، وقتل الأنبياء بغير حق، ونقض العهود والمواثيق، والكذب على الله ، والغدر ، والخيانة، والغيرة والحسد لكل من يأتيه فضل من الله ، وارتكاب المحرمات والمتاجرة بها ، وأمور كثيرة قاتلهم الله أنى يؤفكون ...

فكيف بعد هذا ينبري بعض المتعالمين ليجعلوهم أكفاء للمسلمين في مجتمعٍ واحدٍ ، ويصفوا هذا المجتمع بالتماسك والتآلف؟.

إن كل مجتمع يضمّ عناصر فاسدةً ثم تُساوى مع العناصر الصالحة لا بدّ من أن يطغى الفساد ، ثم ينهار المجتمع، وهذا لا يمكن أن يحدث في الإسلام ومعاذ الله أن يُؤسِّس رسول الله ﷺ مجتمعاً من هذا النوع !!!.

أما المرجفون، والذين في قلوبهم مرض، والمنافقون فهم في كل مجتمعٍ، ولكن يُظهِرون الطاعة ، ويُبدون الصلاح، ويتسابقون إلى فعل الفضائل التي عليها المجتمع. فقد كان المنافقون في عهد رسول الله ﷺ، يتسابقون إلى الصفوف الأولى في الصلاة، فإذا سنحت لهم فرصة بيّتوا غير الذي يقولون وغير ما يُبدون، وإذا بدا ضعف في المجتمع تصدّروا مجالس التزلّف، وإذا ظهر عدوّ على أمتهم، أو سالمها كانوا أسبق الخلق لتبرير أخطاء العدوّ في الماضي، وادّعوا له صفاتٍ ليس له، وساروا في طريقة الزحف الكلامي نحوه، يقولون نخشى أن تُصيبنا دائرة، فيحسبنا الخصم أننا من الذين كانوا يُرهبونه ويُخوّفونه ما دمنا نحن ودعاة الإسلام ننتمي إلى فكرٍ واحدٍ ، ونحمل سمةً واحدةً .

ونذكر فعل رأس النفاق في المدينة عبدالله بن أُبيّ بن سلول في دفاعه عن يهود بني قينقاع وقوله : إني والله امرؤ أخشى الدوائر . وقد أنزل الله في

ذلك ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين. فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو بأمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين** ﴾[1].

وما أن ظهرت فكرة السلام مع اليهود في منطقة (الشرق الأوسط) حتى سارع الذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المنطقة يُغالطون في تاريخ اليهود، ويُحاولون قلب الحقائق رغبةً في لفت النظر إليهم ، وتقديم الأيادي البيضاء عند من يتوقّعون أن يكون لهم دور ، وتنفيذاً لمواقف السادة ، وتمهيداً لإظهار سلامتهم وصدقهم. ولما كان الجهاد في الإسلام هو الموقف المخيف للأعداء جميعاً من أي صنفٍ كانوا، وذلك على مدار التاريخ الإسلامي، لذا كان الأعداء أكثر ما يخشونه من المسلمين إعلان الجهاد، أو الدعوة إليه. لهذا ظهرت كتب تحمل هذا العنوان وليس فيها من الحق، وصدق القول، وصحة الدعوة سوى العنوان فقط. وفي ذلك تبرئةً للنفس من أن تتهم بتأييد الجهاد ، ومحاولةً لمدّ قنواتٍ للحصول على المكانة أو البقاء عليها سواء أكان ذلك في الوضع القائم أم في المرتقب .

وقد أدّى أحد الكتّاب بعض أغراضه إذ خُدع به الكثير لخلو الساحة، واحتكار البيان لساناً وقلماً على الذين يقطعون الساحة طولاً وعرضاً بحريةٍ، يحملون الضوء الأخضر في البيان ، ولا يملك ذلك سواهم، لأنهم من الذين يخشون الدوائر لذا فهم مع القائم يُحسنون المداهنة، ويُجيدون المصانعة، ويعرفون أساليب التقرّب، ويملكون البيان، ويُتقنون

(١) سورة المائدة : الآية ٥١-٥٢ .

المغالطات، وتغيير الحقائق ، وينظرون إلى المستقبل فيُمهّدون لما يتوقّعون دون النظر إلى الذي يُتاجرون به من صفات العلم ، وموقع العمل. وما الله بغافل عما يعملون.

جهاد المجتمع : بعد هجرة رسول الله ﷺ ، وأصحابه ، رضوان الله عنهم ، من مكة إلى المدينة، وبعد مدةٍ وجيزةٍ من الإقامة في دار الهجرة أصبح المجتمع إسلامياً ، مادام الحكم فيه بما أنزل الله، وهو بيد رسول الله. ولا ينظر إلى الأقليات التي بقيت من اليهود أو من الخزرج والأوس الذين لم يدخلوا بالإسلام بعد ، أما المنافقون فلا يعرفون، وهم يُظهرون الإسلام فلا دور لهم ، وما دام الحكم إسلامياً فالمجتمع إسلامي ، وللأقليات حياتهم الخاصة، وأحكامهم الخاصة.

لم يعد هناك أشخاص طغاة يعتدون على المسلمين ، كما كان الوضع في مكة، بل إن كل من يتجاوز الحد ينال جزاءه، فقد حرّض كعب بن الأشرف على المسلمين، وتمادى في غيّه فقُتل بأمر رسول الله ﷺ قبل أُحدٍ على يد جماعة من الأوس ، وحزّب سلاّم بن أبي الحقيق ضدّ المسلمين ، وتجاوز حدّه، وظنّ أنه في منأى، بعيداً عن أيدي المسلمين، إذ هو بخيبر ، فخرجت إليه جماعة من الخزرج بأمر رسول الله ﷺ وقتلته، وهو في عقر داره ، وذلك بعد غزوة الخندق، والانتهاء من أمر بني قريظة.

وعلى هذا لم يعد هناك صبر من المسلمين على أذى الطغاة ، فبقي الجهاد بنشر الدعوة بياناً ، كما أن القتال قد فُرض ﴿ **أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾[1]. قيل : هذا بيان قوله ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا ...** ﴾[2] أي يدفع عنهم غوائل الكفار بأن يبيح

(١) سورة الحج : الآية ٣٩ . (٢) سورة الحج : الآية ٣٨ .

لهم القتال وينصرهم، وفيه إضمار ، أي أُذن للذين يصلحون للقتال في القتال ، فحذف لدلالة الكلام على المحذوف. وقال الضحاك : استأذن أصحاب رسول الله ﷺ في قتال الكفار إذ آذوهم بمكة فأنزل الله ﴿ **إن الله لا يحب كل خوان كفور** ﴾[1] فلما هاجر نزلت ﴿ **أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** ﴾. وهذا ناسخ لكل ما في القرآن من إعراضٍ وترك صفحٍ ، وهي أول آيةٍ نزلت في القتال[2].

ولم يعد هناك تنظيم للمسلمين ، لأن التنظيم وُجد عندما كانوا أقليةً لتدبير أمورهم، وترتيب شؤونهم من تعليمٍ ، ومساعداتٍ ، ونقل ما ينزل به الوحي و ... أما الآن فالسلطة هي المسؤولة عن هذا كله ، والمسلمون جميعاً رعية لها.

فبقي الجهاد في المجتمع الإسلامي هو الدعوة ، وقتال من يقف في وجه الدعوة ، وزال التنظيم والصبر على أذى الكفار إذ غدت السلطة الإسلامية هي صاحبة الأمر ، وليس هناك من يستطيع أن يُؤذي المسلمين ليكون جهادهم الصبر .

أخذ رسول الله ﷺ، بتبيان الدعوة، و إبلاغ المسلمين ما ينزل به الوحي، وتعليمهم أمور الدين ، و إقرائهم القرآن، وفي الوقت نفسه كان يبعث السرايا إلى خارج المدينة. فبعد أن مضى على الهجرة مايقرب من ستة أشهرٍ، وطّد رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، خلالها الجبهة الداخلية وأخذ يسيّر السرايا وينطلق مع الغزوات، وكانت غايتها معرفة الطرق التي حول المدينة، والمسالك المؤدّية إلى مكة، وفجاج المنطقة التي هي ممر

(١) السورة الحج : الآية ٣٨. (٢) تفسير القرطبي.

لقوافل قريشٍ، ثم التعرّف على القبائل التي كانت تقيم على تلك الأرض لإمكانية دعوتها وكسبها للإسلام ، أو لصفّ المسلمين في البداية ، أو لضمان حيادها على الأقل فيما إذا اندلعت نار الحرب بين المسلمين وبين قريشٍ في مواطن تلك القبائل ومنازلها، إذ كانت تلك البقعة نقطة التماس بين الجانبين ، أو ستكون ، وفيها يمكن أن تدور رحى المعركة المرتقبة لذا كان على المسلمين أن يعرفوا هذه الأرض معرفةً جيدةً، إذ لا يمكن لجماعةٍ أن تخوض معركةً ناجحةً في أرضٍ لا تعرف معالمها، لذا كانت السرايا الأربعة الأولى ، والغزوات الأولى الأربعة كلها من المهاجرين الذين لا يعرفون المنطقة على حين يعرفها الأنصار ، هذا إضافةً إلى أن سكان هذه المنطقة يمكنهم أن يلعبوا دوراً في هذه الحرب ، أو تكون لهم يد في التحرّش بين الطرفين بسبب غدو قوافل قريشٍ ورواحها منها.

وكذا كان من مهمة هذا السرايا والغزوات الاستطلاعية التعرّض إن أمكن لقوافل قريشٍ ومنعها، أو أخذها لإضعافها اقتصادياً، وإثبات مكانة وقوة الكيان الإسلامي، وإجبار قريشٍ على الاعتراف بهذا الكيان، ثم نشر تلك الأخبار بين قبائل العرب كلها لمعرفة قوةٍ المسلمين، وضعف قريشٍ، وإظهار أن المسلمين قد أصبحوا أكبر قوةٍ في الجزيرة ،وإسماع أصقاع الأرض المأهولة آنذاك - إن استطاعوا بخبر هذا الدين الجديد ، ومبادئه السامية التي تتماشى مع فطرة البشر، فيُقبل عليه الناس، ولا يخشون طواغيتهم إذ أن وراءهم قوة رادعة، وبهذا تنتشر الدعوة.

فالسرايا والغزوات الأولى كانت استطلاعيةً، قتاليةً ، إعلاميةً، دعويةً.
وقد انتهت في شهر رجب / من السنة الثانية للهجرة ، وهي :

١ - سرية الحمزة.
٢ - سرية عبيدة بن الحارث.
٣ - سرية سعد بن أبي وقاص.
٤ - غزوة ودّان.
٥ - غزوة بواط.
٦ - غزوة العشيرة.
٧ - غزوة بدر الأولى.
٨ - سرية عبدالله بن جحش.

وكانت آخر هذه السرايا والغزوات الاستطلاعية هي سرية عبدالله بن جحش التي وصلت إلى نخلة بين مكة والطائف أي إلى مقربةٍ من ديار قريشٍ ، وكان هدفها رصد قريشٍ ، ومعرفة أخبارها.

وبعد هذه الغزوات والسرايا الاستطلاعية أخذ القتال يدور بين المسلمين وغيرهم من قريشٍ ، وبقية القبائل العربية ، واليهود ، والروم.
وبلغت الغزوات التي غزاها رسول الله ﷺ، بنفسه سبعاً وعشرين غزوةً، وهي :

١ - غزوة ودّان.
٢ - غزوة بواط.
٣ - غزوة العشيرة.
٤ - غزوة بدر الأولى.
٥ - غزوة بدر الكبرى.
٦ - غزوة بني سُليم.
٧ - غزوة السويق..
٨ - غزوة ذي أمر.
٩ - غزوة بحران.
١٠ - غزوة أحد.
١١ - غزوة حمراء الأسد.
١٢ - غزوة بني النضير.
١٣ - غزوة ذات الرقاع
١٤ - غزوة بدر الآخرة.
١٥ - غزوة دومة الجندل
١٦ - غزوة الخندق.
١٧ - غزوة بني قريظة.
١٨ - غزوة بني لحيان.

١٩- غزوة ذي قَرَد.
٢٠- غزوة بني المصطلق.
٢١- غزوة الحديبية.
٢٢- غزوة الغابة.
٢٣- غزوة خيبر.
٢٤- غزوة الفتح.
٢٥- غزوة حنين.
٢٦- غزوة الطائف.
٢٧- غزوة تبوك.

وقد وقع القتال في تسعٍ منها، وهي : بدر ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، والمصطلق ، وخيبر ، والفتح، وحنين ، والطائف[١].

عن أبي إسحاق : كنت إلى جانب زيد بن أرقم ، فقيل له : كم غزا النبيّ ﷺ، من غزوة ؟ قال : تسع عشرة ، قيل كم غزوت أنت معه؟ قال : سبع عشرة، قلت : فأيهم كانت أول؟ قال : العُشَيْرُ أو العُسَيْرَةُ، فذكرت لقتادة فقال : العُشَيْرَةُ[٢].

عن زيد بن أرقم : أن النبيّ ﷺ، غزا تسع عشرة غزوة ، وأنه حجّ بعد ما هاجر حجّةً واحدةً لم يَحُجَّ بعدها « حَجَّةُ الوَدَاع ». قال أبو إسحاق : وبمكة أخرى[٣].

عن جابر بن عبدالله ، قال : غزوت مع رسول الله ﷺ، تسع عشرة غزوةً. وقال : لم أشهد بدراً ولا أُحُداً . منعني أبي. فلما قُتل عبدالله يوم أُحد ، لم أتخلف عن رسول الله ﷺ، في غزوةٍ قط[٤].

ويبدو أن الخلاف في عدد الغزوات يعود إلى حساب خروج رسول الله ﷺ ، من المدينة غزوةً أم لا، كالخروج إلى الحديبية ، وإلى عمرة القضاء ، وإلى الغزوات التي كانت قبل بدرٍ الكبرى : ودّان، بواط، العشيرة ، بدر الأولى، وهذا ما يظهر من كلام جابر بن عبدالله، رضي الله عنهما.

(١) سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد.
(٢) متفق عليه. (٣) متفق عليه. (٤) رواه مسلم.

أما السرايا والبعوث فهي :

١- سرية الحمزة بن عبدالمطلب.
٢- سرية عبيدة بن الحارث.
٣- سرية سعد بن أبي وقاص.
٤- سرية عبدالله بن جحش.
٥- سرية عمير بن عدي.
٦- سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف.
٧- سرية زيد بن حارثة الأولى.
٨- سرية أبي سلمة.
٩- سرية عبد الله بن أنيس.
١٠- سرية مرثد بن أبي مرثد الغنوي .« الرجيع » .
١١- سرية المنذر بن عمرو الساعدي. « بئر معونة».
١٢- سرية محمد بن مسلمة إلى القُرَطاء.
١٣- سرية عُكّاشة بن مِحْصَن الأسدي إلى الغَمْر.
١٤- سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة.
١٥- سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة.
١٦- سرية زيد بن حارثة إلى بني سُليم بالجَموم.
١٧- سرية زيد بن حارثة إلى العيص.
١٨- سرية زيد بن حارثة إلى الطرَف.
١٩- سرية زيد بن حارثة إلى حِسْمى.
٢٠- سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى.
٢١- سرية عبدالرحمن بن عوف إلى دومة الجندل.
٢٢- سرية علي بن أبي طالب إلى فَدَك.
٢٣- سرية زيد بن حارثة إلى أم قِرْفة.
٢٤- سرية عبدالله بن عتيك إلى أبي رافع.
٢٥- سرية عبدالله بن رواحة إلى أسير بن رزام.
٢٦- سرية كُرْز بن جابر الفهري.
٢٧- سرية عمرو بن أمية الضمري.

٢٨- سرية عمر بن الخطاب إلى تُرَبَة.
٢٩- سرية أبي بكر الصديق إلى بني كلاب.
٣٠- سرية بشير بن سعد إلى فَدَك.
٣١- سرية غالب بن عبدالله الليثي.
٣٢- سرية بشير بن سعد إلى يمن وجبّار.
٣٣- سرية ابن أبي العوجاء إلى بني سُليم.
٣٤- سرية غالب بن عبدالله الليثي إلى بني الملوح.
٣٥- سرية غالب بن عبدالله الليثي إلى ناحية فَدَك.
٣٦- سرية شجاع بن وهب الأسدي إلى بني عامر.
٣٧- سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح.
٣٨- سرية مؤتة.
٣٩- سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل.
٤٠- سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر.
٤١- سرية آبي قتادة بن ربعي الأنصاري إلى الخضرة.
٤٢- سرية أبي قتادة إلى بطن إضم.
٤٣- سرية خالد بن الوليد إلى العزى.
٤٤- سرية عمرو بن العاص إلى سواع.
٤٥- سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة.
٤٦-سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة.
٤٧- سرية الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين.
٤٨- سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم.
٤٩- سرية قطبة بن عامر إلى خثعم.
٥٠- سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب.
٥١- سرية علقمة بن مُجَزّز المدلجي إلى الحبشة.
٥٢ - سرية علي بن أبي طالب إلى الفلس.

٥٣- سرية عُكّاشة بنِ مِحْصَن الأسدي إلى أرض عذرة وبلي.

٥٤- سرية علي بن أبي طالب إلى اليمن . (يقال مرتين).

٥٥- سرية خالد بن الوليد إلى بني عبدالمدان بنجران.

٥٦- سرية أسامة بن زيد.

٥٧- سرية ابن أبي حدرد إلى بطن إضم.

٥٨- سرية ابن أبي حدرد الثانية لقتل رفاعة بن قيس الحبشي.

٥٩- سرية سالم بن عمير .

٦٠- سرية عمير بن عدي الخطمي.

ويقول ابن سعد أن عدد الغزوات سبع وعشرون غزوة، وأن عدد السرايا سبع وأربعون سريةً. أما ابن هشام فيقول : وكان جميع ما غزا رسول الله ﷺ، بنفسه سبعاً وعشرين غزوةً. وكانت بعوثه ﷺ وسراياه ثمانيةً وثلاثين، من بين بعثٍ وسريةٍ. وقد ذكر أحدهما من السرايا مالم يذكر الآخر .

خرج من المدينة في المدة التي عاشها رسول الله ﷺ، في دار الهجرة، وهي أكثر من عشر سنوات بقليلٍ ما يزيد على ثمانين جماعةً ما بين غزوةٍ أو سريةٍ أو بعثٍ، وما بين جيش كاملٍ إلى فئةٍ تخرج لتُؤدّي مهمةً أي أن المسلمين يخرجون من المدينة أكثر من سبع مرات في السنة الواحدة للجهاد في سبيل الله أي بمعدل أكثر من مرةٍ كل شهرين ، وهذا يعني أن القتال هو الصفة الأساسية والسمة العامة للجهاد في هذه المرحلة. وهو واجب المجتمع المسلم في كل وقتٍ. ومع هذا يعدّ الذين في قلوبهم مرض أن القتال في سبيل الله لم يكن إلا في ظروفٍ استثنائيةٍ .

وما أن تـوفّي رسول الله ﷺ، حتـى كان معظم الجزيـرة العربيـة قد دان بالإسلام ، وأصبـح منذ السنة التاسعـة للهجرة ، بعد نزول سـورة براءة لا يسمح لمشركٍ أن يبقى في المجتمع الإسلامي ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخـذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فـإن تابوا وأقاموا الصـلاة وآتوا الزكاة فخلـوا سبيلهم إن الله غفور رحيم** ﴾[1] .

واستمـر القتـال وانتشـار الإسـلام بعـد رسـول الله ﷺ، ففـي العهـد الراشـدي دخل المسلمـون دولة فارس، وفتحـوا أرضها، فـزال سلطانها ، وانتهت مجوسيتهـا، وعمّ الإسـلام أقاليمها. وفتـح المسلمون أيضـاً أجزاءً واسعةً مـن دولة الـروم ، وقد انتشر الإسـلام في هذه الأجـزاء، وانكمشت النصرانية ، وأصـاب الرعـب الروم حكـاماً ورعيّـةً فانـزووا في جحورهـم ينتظرون ضعف المسلمين ، وارتفعت راية الإسلام ، وكانت كلمة الله هي العليا.

وتتابعت عمليـات الفتح في العهد الأموي، وتوسّعـت ديار الإسلام، وسـاد دين الله كـل أرضٍ دخلهـا المسلمون، وطـرق المجـاهدون أبـواب الصين شرقاً، وحـاصروا القسطنطينية عاصمة بيـزنطة، واقتربوا مـن روما قاعدة الروم الغربية، وغدوا على مقربةٍ من باريس حاضرة بلاد الفرنجة.

وتقدّم المسلمون بخطىً وئيدةٍ في العهد العباسي، وعلى خجلٍ لما أهملوا من أمر دينهم، فتقدّموا من الأندلـس في بلاد الفرنجة، ودخلوا أوربا من جهة الغرب، وتـوسّعوا قليلاً في بلاد الـروم ، وشغلهم بأسهم الـذي كان بينهم ، وخلـودهم إلى الـدنيا فتطـاول عليهم الصليبيـون وجاءوا إليهـم،

(١) سورة التوبة « براءة » : الآية ٥ .

وطرقـوا عليهم البـاب ، ودخلوا عليهـم من أخطـر الفتحات ، ووضعـوا أقدامهـم عند مـدخل البيـت وفي محوره. وكان هـذا الدخـول أن اهتزّت مشاعر الإيمان عنـد المسلمين فتحرّكت أجسامهم واتّجهـت للجهاد نحو المحور فألقت الدخلاء في البحر ، وارتفعـت راية الإسلام، وكانت كلمة الله هي العليا.

وتدفّـق المغول من نـاحية الشرق من قفار منغـوليا نحو ديـار الإسلام بتحريضٍ ممـن أُلقي في البحر في الغرب وباندفـاعٍ ذاتيٍ لما وُصف لهم عن بـلاد المسلمين من الظـلال الوارفـة، والمياه الـرقراقـة، والفواكـه الكثيرة، وجنان الأرض، وبلـدان العسل، فسال لعابهم، فهـم يعيشون في البراري الموحشـة، والسهوب القـاحلـة يتمنون الميـاه الـرنقـة فلا يجدونها ، ولـون الخضرة ، وظـل المخلوقـات ، ويحلمـون برؤيـة الميـاه الجارية، والقطـوف الدانيـة و ... تدفّـق هؤلاء المغـول بوحشيـةٍ فما أتوا على شيءٍ إلا جعلـوه خـراباً، فـانتصروا بهمجيتهم ، وسـاعدهـم على الغلبة ضعـف المسلمين لتركهم الجهـاد ، وتهاونهم بأمـور دينهم ، فاجتـاح المغول بغـداد حاضرة الخلافة، وتسلّطـوا على أجزاءٍ واسعةٍ من ديـار الإسلام ، ومع هـذه الغلبة فقد بقي المسلمون يشعرون بالاستعلاء على هؤلاء الدخلاء هذا الاستعلاء بالإيمان مادام الغـرباء كافرين ، وكان لهذا الاستعـلاء دوره حيث لم يلبث المغول أن دانوا بالإسلام ، وذابوا بالمجتمـع الذي هم فيه، وتمثّلوا حضارة المسلمين فخضعت لهم مـوسكو، وعملوا على نشر الإسلام ، وفي الـوقت نفسه فقـد انتشر الإسلام في جنوب شرقي آسيـا ، وفي شرقي إفريقيـة عن طريق التجارة ، ومعرفة معاملة المسلمين ، وأخلاقهم، وأسلوب حياتهم، وطرق تفكيرهـم ، ونظرتهم إلى الحياة الدنيـا، والإسلام دين الفطرة فـأقبل عليه سكان تلك المناطق.

ومع الضعف الذي أخذ ينخر في جسم الأمة تحرّك الصليبيون نحو ديار الإسلام في سبيل احتلالها، والسيطرة عليها، واستغلال ثرواتها في سبيل إنهاكها، وسمّوا ذلك استعماراً بمعنى الإعمار من باب المغالطات، والقوي هو الذي يدوّن التاريخ، ويُسطّر ما يريد من معلومات.

ومع الضعف الذي حلّ بالأمة فقد استعلت نفوس بعض الشعوب، وانطلقت تقاتل المستعمرين الصليبيين، ففتحت القسطنطينية، وانطلقت في أوربا تجتاحها إقليماً بعد آخر حتى طرقت أبواب فيينا. وفي الوقت نفسه اتجهت إلى جنوبي أرض العرب لتُقاتل المستعمرين هناك، وكانوا قد وصلوا إلى تلك الجهات بل أخذت تُلاحقهم حتى الهند.

وفي البلدان الإسلامية التي دخلها المستعمرون رغم ما فيها من ضعفٍ فقد كانت تتحرك بعض المجموعات، وتُنادي بالجهاد، وتُنازل الدخلاء، وكثيراً ما كانت تتغلّب عليهم في بعض الجولات، وتُحطّم معنوياتهم في بعض المعارك، وتذلّ شموخهم في بعض المواقف، وتمرّغ أنوفهم في التراب في بعض البقاع، ولولا آلية السلاح وحداثته، وكثرة الدخلاء وتعاون دولهم، ودقة المخططات، وأساليب الخداع لأُلقي المستعمرون في البحر كما حدث لأسلافهم. وأكثر ماكان يُرهب الأعداء، ويجعل معنوياتهم تنهار سماع صيحات التكبير من المجاهدين، بل كان كيانهم يهتزّ، وأعصابهم ترتجف، فكان ذلك أصعب عليهم من دويّ المدافع، ومن صوت تحرّك الدبابات، ومن قصف الطيران اليوم، وربما خططوا للرحيل عدة مرات عندما كان يشتدّ الأمر عليهم. فصيحات الجهاد أكثر ما يخافه الأعداء.

سرّ الجهاد :

الجهاد في اللغة : جَهَد بذل الطاقة والوسع، أو هو المشقّة.

والجهاد شرعاً : إذا أُطلقت كلمة الجهاد فإنما يراد بها القتال وبذل الوسع لإعلاء كلمة الله.

قال الكاساني : « الجهاد بذل الوسع والطاعة بالقتال في سبيل الله عزّ وجلّ، بالنفس والمال واللسان» (١).

وقال الفقيه ابن رشد : ألا فاعلم : « أن الجهاد في سبيل الله إذا أُطلق فلا يقع بإطلاقه إلا على مجاهدة الكفار بالسيف حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم غرون» (٢).

فالجهاد هو استفراغ الجهد كاملاً ، والطاقة الكامنة كلها للتوجه نحو هدفٍ معينٍ للوصول إلى غايةٍ ساميةٍ هي الجنة أو النصر والتمكين في الأرض. واستفراغ الجهد كاملاً يجعل المسلم لا يُفكّر بما حوله، ولا يحسّ بما يجري إلى جانبه بل ينصبّ اهتمامه كله ، وتتحرّك جوارحه جميعها، ويتجه إحساسه كاملاً نحو الهدف إنه الجنة، فهل هناك هدف أعظم من هذا الهدف ؟؟ انطلاقة نحو الفردوس الأعلى ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾ (٣).

ولنر بعض الأمثلة من المؤمنين المجاهدين الذين ينطلقون كالسهم ينظرون إلى الجنة أمامهم فيتشوّقون إليها فيزيدون الانطلاقة.

خرج رسول الله ﷺ، يوم بدرٍ إلى الناس فحرّضهم، وقال : (والذي نفس محمدٍ بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير

(١) بدائع الصنائع : ٩/ ٤٢٩٩. (٢) مقدمة ابن رشد : ١/ ٣٦٩. (٣) سورة التوبة : الآية ١١١.

مدبـرٍ، إلا أدخله الله الجنة). فقـال عمير بن الحُمام، أخو بنـي سَلمِة، وفي يـده تمرات يأكلهـن : بخٍ بـخٍ، أفما بينـي وبين أن أدخل الجنـة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يـده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قُتل[1].

إن عمير بـن الحُمام هـذا لهو أقـوى من أي بطـلٍ في الـدنيـا مـن غير المسلمين لأنه يطلـب الموت الذي تفّر منـه الأبطال ، ويُقـدم على المنون الذي يهرب منه الشجعـان ، لا يرغب بالشهادة فيستسلـم، ويُسلّم رقبته للعدوّ ، ولكن ينـدفع يعمل حصداً في رقـاب الأعداء، يخوض في صفوف الخصم فيضرب مَـن أمامه ، وينثنـي يمنةً فيطعن ، ويلتفـت يسرةً فينحر فيبتعد من أمامه المقاتلون ويفرّمنه الأبطال ، ويهرب القادة ، وهذا الجهاد، إنه قد باع نفسه لله، ويريد مقابلها الجنة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارةٍ تنجيكم مـن عذاب أليـم. تؤمنون بـالله ورسولـه وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفـوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتـح قريب وبشر المؤمنين**﴾[2]. وخاض المسلمون معاركهم، ومقاتلـوهم جميعهم بمثل هذا المجاهد ، وانتصروا فيها كلهـا - بإذن الله - مع أن أعـداد عدوهـم تكون أضعاف عددهم . فقوة الجيـش لا تقدّر بعـدد أفراده بـل بقوة إيمانـه ، وارتفاع معنوياته .

وبين المسلمين من هـو أقوى ساعـداً ، وأسرع اندفاعـاً، وأكثر خبرةً ، وأمضى سلاحاً، وأشدعزيمةً، وأنكى مكيدةً من عمير بن الحُمام.

(١) سيرة ابن هشام. (٢) سورة الصف : الآية ١٠-١٢.

« وقد كان فيمن شهد اليرموك : الزبير بن العوام، وهو افضل من هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذٍ ، فقالوا : ألاتحمل فنحمل معك ؟ فقال : إنكم لا تثبتون ، فقالوا : بلى ! فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الأعداء أحجموا وأقدم هو فاخترق صفوف الروم حتى عاد من الجانب الآخر ، وعاد إلى أصحابه ، ثم جاءوا إليه مرةً ثانيةً ففعل كما فعل في الأولى ، وجرح يومئذٍ جرحين بين كتفيه»[1].

« وثبت يومئذٍ : يزيد بن أبي سفيان ، وقاتل قتالاً شديداً، وذلك أن أباه مرّ به ، فقال له : يا بني عليك بتقوى الله والصبر، فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتال ، فكيف بك وبأشباهك الذين وُلّوا أمور المسلمين ؟ أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة، فاتق الله يا بني، ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب، ولا أجرأ على عدو الإسلام منك. فقال : أفعل إن شاء الله. فقاتل يومئذٍ قتالاً شديداً، وكان من ناحية القلب، رضي الله عنه[2].

عن أبي إسحاق قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ، لا يثبت لهم العدد فواق ناقة عند اللقاء، فقال هرقل وهو على إنطاكية لما قدمت منهزمةً الروم : ويلكم ؟ أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ؟ أليسوا بشراً مثلكم ؟ قالوا : بلى . قال : فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطنٍ . قال : فما بالكم تنهزمون ؟ قال شيخ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن

(٢) البداية والنهاية – ابن كثير (٢) المصدر السابق نفسه.

أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب، ونظلم، ونأمر بالسخط ، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض. فقال : أنت صدقتني[1].

هذا الجهاد في سبيل الله، وهذا سبب خوف الأعداء منه، وقد أمرنا الله بالإعداد له مادياً من سلاحٍ، وتدريبٍ، وأفرادٍ، ومعنوياً من الحث والتشجيع، والتحريض على القتال، والتذكير بآيات الله التي تدعو إلى قتال الكفار ومجاهدتهم، وإلى ما أعدّه الله للمجاهدين من دخول الجنة، ومرافقة النبيين والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً، ومن تمكينٍ في الأرض، ورفع في المكانة. ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتهم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيءٍ في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾[2].

وقال تعالى : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون** ﴾[3].

﴿ **لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون** ﴾[4].

﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربّصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدي القوم الفاسقين** ﴾[5].

(١) البداية والنهاية. (٢) سورة الأنفال : الآية ٦٠ . (٣) سورة التوبة : الآيتان ١٩-٢٠.
(٤) سورة التوبة : الآية ٨٨. (٥) سورة التوبة : الآية ٢٤.

﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرلكم إن كنتم تعلمون ﴾[1].

﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ﴾[2].

﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً وكلاً وعد الله الحسنى وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾[3].

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾[4].

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أد لكم على تجارةٍ تنجيكم من عذابٍ أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشّر المؤمنين ﴾[5].

ويقول رسول الله ﷺ، لمعاذ بن جبل، رضي الله عنه : (ألا أخبرك برأس الأمر كله، وعموده، وذروة سنامه)؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : (رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)[6].

---

(١) سورة التوبة : الآية ٤١ .
(٢) سورة التوبة : الآية ٤٤ .
(٣) سورة النساء : الآية ٩٥ .
(٤) سورة الحجرات : الآية ١٥ .
(٥) سورة الصف : الآيات ١٠-١٣ .
(٦) أخرجه الترمذي برقم (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣).

ويقول ﷺ : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[1].

وقد توفي ﷺ، وجيش أسامة على وشك مغادرة المدينة ، وقد عقد لواءه بيده.

عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات ولم يغزُ ، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبةٍ من النفاق)[2]. وهذا يدل على أن المسلم من واجبه أن يهيء نفسه للجهاد في سبيل الله، وقتال الأعداء.

وقال رسول الله ﷺ، يوماً على المنبر (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي)[3].

وقال رسول الله ﷺ : (فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه)[4].

وكان رسول الله ﷺ، يحضّ على ركوب الخيل، والسباحة لقوة الجسم، وكذا على صنع السلاح.

وقال رسول الله ﷺ : (تكفّل الله لمن جاهد في سبيله ، لا يُخرجه إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته ، بأن يدخله الجنّة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ)[5].

وقال : (والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلّفوا عني ، ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلّفت عن سريةٍ تغزو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده لوددت أن أُقتل في سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أُقتل ، ثم أحيا ، ثم أُقتل ، ثم أحيا ، ثم أُقتل)[6].

---

(١) متفق عليه.
(٢) أخرجه مسلم برقم (١٩١٠).
(٣) أخرجه مسلم برقم (١٩١٧).
(٤) أخرجه مسلم برقم (١٩١٨).
(٥) متفق عليه.
(٦) متفق عليه .

وقال (والذي نفسي بيده لا يُكْلَمُ أحد في سبيل الله - والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله - إلا جاء يوم القيامة ، واللون لون الدم ، والريح ريح المسك)[1] .

وقال : (لولا أن أشقّ على أمتي ما تخلّفت عن سرية)[2] .

وقال : (ما اغْبَرّت قد ما عبدٍ في سبيل الله فتمسّه النار)[3] .

وقال : (رباط يومٍ في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد في سبيل الله ، أو الغدوة ، خير من الدنيا وما عليها)[4] .

وقال : (لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها)[5] .

وقال : (ما أحد يدخل الجنة يحبّ أن يرجع إلى الدنيا ، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد ، يتمنّى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مراتٍ، لما يرى من الكرامة)[6] .

وقال : (عينان لا تمسّهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله)[7] .

ولكن أصحاب الهوى والمصلحة، وأعوان الأعداء يتأولون ويردّون هذا كله، سواء أكان كلام الله أم كلام رسوله، وما ردّه هذا إلا تبعاً لما تهوى الأنفس ، ومع الأسف فإن بعضهم يردّ هذا باسم الإسلام، بل ربما كان بعضهم يُدرّس الإسلام ، أو يرفع شعاراته ، أو يحمل عنواناً إسلامياً. يردّه انهزاميةً وهوى.

---

(١) متفق عليه .
(٢) رواه البخاري .
(٣) رواه البخاري .
(٤) متفق عليه .
(٥) متفق عليه .
(٦) رواه البخاري .
(٧) رواه الترمذي ، والنسائي ، والدارمي ، وصححه الحاكم .

الانهزامية والهوى :

لما كانت صيحات الجهاد تُرهب الأعداء الأمر الذي يجعلهم يخشون قتال أولئك الذين يرفعون تلك الصيحات ، صيحات التكبير ، لما يحملون من معنوياتٍ عاليةٍ، ويَصْدُقون عنداللقاء، ويصبرون وقت الشدّة. لذا عمل أعوان الأعداء، وعبد الطاغوت عدة وسائل لإبعاد الجهاد عن الساحة إرضاءً للسادة، وتحقيقاً للمصلحة الذاتية.

أولاً : ادعت بعض المنظمات الإسلامية أن العمل بالجهاد قد توقّف. وفي هذا الادّعاء مخالفة لقول الله تعالى ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يروكم عن دينكم إن استطاعوا**﴾[1]. فقتال الأعداء إذن قائم .

وأقوالهم مخالفة لقوله تعالى : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود والانصارى حتى تتبع ملتهم**﴾[2]. فكراهية الأعداء دائمة .

ومخالفة لقوله تعالى : ﴿ **وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنامن لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً**﴾[3].

ومخالفة لقوله تعالى : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوالهم كل مرصد**﴾[4].

فالجهاد ماضٍ : ١ - مادام يوجد مشرك على ظهر الأرض.

٢ - مادام الإسلام لم يعمّ الأرض، ولم تُطبّق الشريعة في أنحاء المعمورة.

٣- مادام يوجد ظلم على وجه الأرض.

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٧.
(٢) سورة البقرة : الآية ١٢٠
(٣) سورة النساء : الآية ٧٥.
(٤) سورة التوبة : الآية ٥.

٤- مادام اليهود والنصارى يجهدون لفتنة المسلمين ولا يرضون دون ذلك.

وفي هذا الادّعاء في توقّف الجهاد مخالفة لحديث رسول الله ﷺ.

قال رسول الله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة)[1].

وعن أنس، رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: (... والجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال)[2].

فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، ولا يمكن لهيئةٍ ولا لغيرها مهما حملت من عناوين، أو رفعت من شعاراتٍ إسلاميةٍ، أن تعلن وقف الجهاد فقول الله هو الذي يُتّبع، وفعل رسول الله ﷺ، يُصدّقه.

ثانياً: زعم بعضهم أن أُسس الجهاد هو جهاد النفس، وتحمّل الأذى، والصبر على الشدّة، وكلمة الحق، وتبيان السبيل، وأما القتال فهو عند ظهور السبب فقط، كتناول الدواء عند ظهور المرض.

« إن من أنواع الجهاد التي شرعت مع فجر الإسلام، مواجهة رسول الله ﷺ، المشركين، ومن ورائه أصحابه، بدعوتهم إلى الحق، وتفنيد ما كانوا يعكفون عليه من تقاليد الآباء والأجداد.. وإن من أهم أنواعه ثباته وثباتهم معه على الصدع بكلمة الحق، مهما جرّ ذلك عليهم من أنواع الشدة والإيذاء.. وإن من أهم أنواعه مُضيهم في التبصير بكتاب الله، والتعريف به، والتنبيه إلى إخباراته وأحكامه، دون مبالاةٍ بالأخطار التي

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٢٣)، وهو متفق عليه من حديث المغيرة، وحديث معاوية.
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٢٥٣٢).

تحدق من جرّاء ذلك بهم ... وكيف لا وقد سمّاه الله تعالى جهاداً في صريح بيانه، عند ما قال لرسوله وهو لا يزال في مكة : ﴿ **فلاتطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾ كما قال ابن عباس وغيره. وتأمّل في تسمية النهوض بهذا الواجب ﴿ **جهاداً كبيراً** ﴾ لتعلم مركزه الكبير المتميز بين أنواع الجهاد. وكل هذه الأنواع التي تعدّ أُسّ الجهاد وجوهره، والتي لاشأن لها بالقتال ، هو المعني بكلمة ﴿ **جاهدوا** ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا، ثم جاهدوا وصبروا، إن ربك من بعدها لغفور رحيم**﴾. فقد علمت أن رسول الله ﷺ، إنما خوطب بهذا الكلام قبل هجرته إلى المدينة المنورة.

ومما يؤكد هذه الحقيقة ويزيدها وضوحاً قول رسول الله ﷺ : (أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطانٍ جائرٍ) وقوله عليه الصلاة والسلام : (أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله تعالى).

بل إنك إذا تأملت، أدركت أن الجهاد ، بهذا المعنى الذي استقر في مكة منذ فجر الإسلام ، هو المصدر والمعين لما قد تفرّع وتكاثر ، من بعد ، من أنواع الجهاد الأخرى.

بل ما أشبه هذا المصدر بالجذع الثابت من الشجرة في سائر الظروف والأحوال ، وما أشبه النوع القتالي، بكل أشكاله وأحواله بالأغصان التي تأتي وتذهب بين الحين والآخر ، طبقاً لما تقتضيه عوارض الظروف والأسباب... أو قل : ما أشبه الجهاد المكيُّ المتمثل في الأنواع التي ذكرناها بالغذاء الذي لا يستغني عنه الإنسان في أي حالٍ. وما أشبه الجهاد القتاليُّ الذي شرع لدى ظهور أسبابه بالدواء الذي إنما يلجأ إليه فراراً من عوارض الأوجاع والأمراض [1].

(١) الجهاد في الإسلام - الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

١ - إن الكاتب يُغالط هنا فيتكلم عن الجهاد في مكة عندما كان المسلمون أقليةً، ويسيطر المشركون من قريشٍ على بلدهم التي هم فيها ، ويُطنب في جهاد الأقليات ويختار الألفاظ الجميلة حتى يرسّخ هذا المعنى في نفس القارىء، ثم يُعمّم هذا المعنى على حياة المسلمين جميعها، وشتّان بين الجهاد في مكة حيث المسلمون أقليةً، والمشركون يتحكّمون في المجتمع ، ويتغطرسون ، وبين الجهاد في المدينة حيث المسلمون الأكثرية ولهم السيادة، بل شُرع القتال في المدينة، وعلى المسلمين الأخذ به، ولم يشرع في مكة ، فما كان على المسلمين أن يُفكّروا به، أو يلجؤوا إليه ، وهو ما ساروا عليه.

٢ - تناسى الكاتب آيات القتال، وضرب عنها صفحاً عمداً. وكلها تحثّ على القتال، وتأمر به ، وتدعو إلى استعمال السيف لجهاد المشركين، ومقارعة الظالمين، وضرب الذين يقفون في وجه الدعوة، وذلك حتى يعمّ الإسلام، وينتهي الظلم، ويزول المشركون . فالمجتمع المسلم لا يوجد فيه مشرك واحد : **﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ..﴾**[1]. **﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله إثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير﴾**[2]. **﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾**[3].

﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم

(١) سورة التوبة : الآية ٥. (٢) سورة التوبة : الآيتان ٣٨-٣٩. (٣) سورة التوبة : الآية ٤١.

الخيرات وأولئك هم المفلحون ﴾ [1].

وهل بعد هذه الأوامر من الله والايضاحات مجال للتأويل ، والمغالطة . والدليل التاريخي على ذلك أن الأقاليم التي دخلها المسلمون فاتحين لم يبق فيها مشرك واحد ، أما الأقليات الضالة المارقة فقد ظهرت فيما بعد عندما غفل المسلمون عن تطبيق شرع الله جل وعلا. ولكن الأقاليم التي لم يصل إليها الفتح الإسلامي، وإنما انتشر فيها الإسلام عن طريق الدعوة وعن طريق الإقبال على الدين لما لمسوا في الإسلام من المزايا والانسجام مع الفطرة البشرية، ولم يُطبّق فيها شرع الله تعالى ففي هذه الأقاليم يوجد وثنيون .

وأما الاحتجاج بالآية الكريمة ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ...﴾ أي لا إكراه على الإسلام بالنسبة إلى الذين يؤمنون بالله ويعترفون بالخالق، وهم أهل الكتاب من يهود ونصارى فيما إذا وافقوا على الجزية. أما المشركون فلا يقبل منهم إلا الإسلام ، وهم بين الارتحال أوالسيف أو الإسلام.

« وقيل : إن الآية ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ منسوخة ، لأن النبي ﷺ، قد أكره العرب على دين الإسلام[2]، وقاتلهم، ولم يرض منهم إلا الإسلام، قاله سليمان بن موسى، قال : نسختها ﴿ **يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين**﴾. وروي هذا عن ابن مسعود وكثيرٍ من المفسرين.

---

(١) سورة التوبة : الآية ٨٨.

(٢) لم تتجاوز دولة رسول الله ﷺ، جزيرة العرب. وقد أكره المشركين، ولم يتعرّض لليهود، وكانت لهم تجمعات في اليمن، وخيبر و... كما لم يتعرّض للنصارى في نجران، وقد بقي هؤلاء وأولئك حتى أخرجهم عمر، رضي الله عنه. ولما امتدت ديار الإسلام خارج جزيرة العرب أكره الخلفاء المسلمون المشركين على الإسلام، سواء أكانوا عرباً أم عجماً من قريشٍ أو من غيرها.

وقيل : ليست بمنسوخة، وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصةً، وأنهم لا يُكرهون على الإسلام إذا أدّوا الجزية ، والذين يكرهون أهل الأوثان فلا يقبل منهم إلا الإسلام، فهم الذين نزل فيهم ﴿ **يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين** ... ﴾[1] هذا قول الشعبي، وقتادة، والحسن، والضحّاك. والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمي أيتها العجوز تسلمي، إن الله بعث محمداً بالحق. قالت : أنا عجوز كبيرة ، والموت إليّ قريب ، فقال عمر : اللهم اشهد، وتلا : ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾.

ما رواه أبو داود عن ابن عباس قال : نزلت هذه في الأنصار ، كانت تكون المرأة مقلاتاً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تُهوّده، فلما أُجليت بنو النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾. قال أبو داود : والمقلات التي لا يعيش لها ولد . في رواية : إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه ، وأما إذ جاء الله بالإسلام فنكرههم عليه فنزلت : ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ من شاء التحق بهم ، ومن شاء دخل في الإسلام. وهذا قول سعيد بن جبير ، والشعبي، ومجاهد إلا أنه قال : كان سبب كونهم في بني النضير الاسترضاع. قال النحاس : قول ابن عباس في هذه الآية أولى الأقوال لصحة إسناده ، وأن مثله لا يؤخذ بالرأي.

قال السدي : نزلت الآية في رجلٍ من الأنصار يقال له أبو حصين كان له ابنان ، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت ، فلما أرادوا

(١) سورة التحريم : الآية ٩.

الخروج أتاهم ابنا الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصّرا ، ومضيا معهم إلى الشام ، فأتى أبوهما رسول الله ﷺ، مشتكياً أمرهما، ورغب في أن يبعث رسول الله ﷺ، من يردّهما، فنزلت : ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب ، وقال : (أبعدهما الله هما أول من كفر) فوجد الحصين في نفسه على النبي ﷺ، حين لم يبعث في طلبهما فأنزل الله جلّ ثناؤه : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾ الآية . ثم نسخ ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة « براءة» . والصحيح في سبب قوله تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون** ﴾ حديث الزبير مع جاره الأنصاري في السقي على ما يأتي في « النساء » بيانه إن شاء الله تعالى. وقيل : معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف مجبراً مكرهاً ، وهو القول الخامس. وقول سادس، وهو أنها وردت في السبي متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا إن كانوا كباراً، وإن كانوا مجوساً صغاراً أوكباراً أو وثنيين فإنهم يجبرون على الإسلام ، لأن من سباهم لاينتفع بهم مع كونهم وثنيين، ألا ترى أنهم لا تؤكل ذبائحهم، ولا توطأ نساؤهم، ويدينون بأكل الميتة والنجاسات وغيرهما، ويستقذرهم المالك لهم ، ويتعذّر عليه الانتفاع بهم من جهة الملك فجاز له الإجبار . ونحو ما روى ابن القاسم عن مالك. وأما أشهب فإنه قال : هم على دين من سباهم، فإذا امتنعوا أُجبروا على الإسلام ، والصغار لا دين لهم فلذلك أُجبروا على الدخول في دين الإسلام لئلا يذهبوا إلى دينٍ باطلٍ. فأما سائر أنواع الكفر متى بذلوا الجزية لم نكرههم على الإسلام سواء كانوا عرباً أم عجماً قريشاً أو غيرهم»[1].

(١) تفسير القرطبي.

والخلاصة فإن المشركين يُجبرون على الإسلام وإلا فالسيف أما أهل الكتاب فيؤدّون الجزية ولا يكرهون في الدين.

٣- إن القتال يقتضي وجود قوةٍ، ويلزم استعداد دائم، واحتياط للأمر، أما البيان، والصبر على الشدّة، وتحمّل الأذى، وهذا لا يحتاج إلى قوة لأن القتال أمر مستبعد، ويبقى المسلمون ضعفاء يسيطر عليهم الأعداء، ويسلّط عليهم الطواغيت، وهذا ما يريده عبدة الطاغوت، والذين يسعون وراء المكانة والشهرة، فإن لم يصلوا إلى ما يطمعون فيه بالأوقات العادية لوجود أهل العلم وذوي المكانة، فإنهم يصلون في مرحلة الطغيان لغياب العلماء وذوي الشرف فيبرز عندها المتزلّفون، وأعوان الأعداء، وتبدأ المغالطات في التاريخ بل وفي قضايا الدين - مع الأسف-، ويحرص الخصم على هذا أيضاً إذ تقلّ هيبة العلماء، وتنزل مكانتهم في المجتمع.

ثالثاً: رأى الانهزاميون قوّة الأعداء، وضعف المسلمين في هذه المرحلة، فضعُفوا نفسياً وذُلّوا، فصعُب عليهم الحديث عن الجهاد في سبيل الله، وقتال الأعداء، وتفوّق المسلمين لذا زعموا أن القتال في الإسلام لم يكن هجومياً أبداً، بل كان دفاعياً، ولم يكن المسلمون ليبدؤوا بالقتال بل يعملون على حماية ثغورهم، ويردّون عنها الأعداء، ويقومون بردّ الفعل حمايةً لأنفسهم، وأعراضهم، وأملاكهم، ويسعون دائماً للوصول إلى موانع طبيعية تحول بينهم وبين اعتداء الجوار، تدفع عنهم الأذى، وتقيهم شرّ الأعداء.

وإن الواقع والتاريخ ليُكذّب هذه المزاعم، وهذه الأقوال الانهزامية،

فما أن وصل رسـول الله ﷺ، إلى المدينة مهاجـراً ، ورتّب الجبهة الـداخلية ونظّمها حتى أخذ يبعث السرايا، ويقـود الغزوات تستطلع أرض المعركة، المرتقبة، وتتعرّف على ساحات القتال المحتملة، وتقيم الصلات مع قبائل وسكان تلك الجهات ليكونوا إلى جـانبهم إذا احتدم القتال أو يقفوا على الحيـاد على أقل احتمال . بـل لقد بعـث رسول الله ﷺ سريـة عبدالله بـن جحش إلى نخلة على مقربةٍ من مكة لتعرف أخبار قريشٍ، وترصد تحرّكها وذلك في وقتٍ مبكرٍ إذ كان ذلك في شهر رجـب من السنة الثانية للهجرة أي قبل معركة بدر الكبرى بشهرين. وتوفي رسول الله ﷺ، وجيش أسامة على أهبة الانطلاق من المدينة لغزو أطراف الشام التي تخضع للروم ، وقد عقد رسول الله ﷺ، اللواء لأسامة بيده الشريفة.

وانطلقـت جيوش الفتـح في العهد الـراشـدي للجهاد في سبيـل الله، وقتال الذين يقفون في وجه الـدعوة حتى انتشر الإسلام في أرجاء واسعةٍ، وخنع الفرس والروم الذين عملوا على دعم المرتدين ، وحاولوا الوقوف في وجـه الدعـوة، ولم تلبـث أن زالت دولـة الفـرس ودان أهلهـا بالإسـلام ، وخسرت دولـة الـروم أجـزاءً واسعـةً مـن المناطـق التـي كـانـت تخضـع لسلطـانها، وهاتـان الدولتـان هما أكبر دول العـالم يومـذاك وأقواهـا دون منازعٍ.

وتـابـع الجهـاد سيره في العهـد الأمـوي، وكـان القتـال على مختلـف الجبهات، وتجاوز المسلمون مناطق منيعةً ولم يتخـذوها حواجز تقيهم شرّ الجوار ، ولم يتحصّنوا فيها ضـد الأعداء، فقد اجتازوا ذرا جبـال طوروس بينهـم وبين الروم ، وانتقلـوا عبر البحر إلى الأنـدلس ، وركبـوه إلى الجزر البعيدة و ... وهكذا كان الجهاد في سبيل الله.

إن من مهمة المسلمين الأساسية في الحياة إبلاغ الدعوة إلى الناس بالبيان، والحكمة، والموعظة الحسنة، وهذه الدعوة لا بدّ لها من قوةٍ تحميها من الأعداء ، وتقاتل من يقف في وجه حملها وإبلاغها إلى الناس كافةً. وهذه القوة يجب أن تكون جاهزةً دائماً ، مستعدّةً دائماً، والإعداد لها باستمرار حتى يعمّ الإسلام الأرض ، وينتهي الظلم ، ويزول الشرك ، وهذا هو الجهاد المفروض على الأمة المسلمة.

وإن الدعوة من غير قوةٍ تحميها، وتصدّ عنها، وتُقاتل من يقف في وجهها، لن تنطلق من أماكنها، بل سيعمل الكافرون على خنقها، ويتسلّط الطغاة على رجالها حتى تموت أو يتَّبع أهلُها ملّةَ اليهود والنصارى كما يحلم أهل الكتاب ... وهذا ما يعمل له أعوان الأعداء، والانهزاميون، والمرجفون سواء أكانوا يدرون أو لا يدرون. ويكون المسلمون قد أهملوا دعوتهم، وقصّروا في واجبهم، ولم يُؤدّوا مهمتهم في الحياة ، ويكون هذا بسبب أولئك الذين يرون أن الدعوة بالبيان، والصبر فقط ، أو يزعمون أن القتال غير مطلوب إلا بظروف، أو يدّعون أن القتال للدفاع عن النفس، وحماية الحدود فقط، وسواء أكان هؤلاء الأدعياء يحملون صفة العلم أو غيره ... فهم في الواقع غير ذلك ، وإن تظاهروا بالدعوة ، ونصّبوا أنفسهم لتعليم الإسلام ، ووقفوا أمام العامة يتباكون على الدين ... ، وهم أمام الأعداء والطغاة يتزلفّون ويرفعون شعار :

« أن الدعوة لا تقتل إلا بالدعوة » كما ضربت الاشتراكية بالاشتراكية، ولا يفلّ الحديد إلا الحديد.

الفصل الثالث:

جهاد القادة والموجّهين

إن للقادة والموجّهين دوراً كبيراً في الجهاد فإضافةً إلى قيادة المقاتلين ، والسير أمامهم في المعارك فهم يُنظّمون الأمور، ويرسمون الخطط، ويضعون الوسائل المضادة لخطط العدوّ ، وهذا يقتضي معرفة أهداف الخصم، ووسائله.

وقد عُلم من قواعد الدين أن ما لا يتمّ الواجب إلا به فهو واجب ، وأن الوسائل لها أحكام المقاصد . ولا يخفى أنه لاتتمّ الحماية من الأعداء، وتجنّب شرورهم إلا بمعرفة مقاصدهم ، ودراسة أوضاعهم وأهدافهم البعيدة وخاصةً الموجّهة ضدّ المسلمين ، فإن مخططاتهم قد بُنيت على المكر والخداع ، وعدم الوفاء بالعهود التي يقطعونها على أنفسهم ، فما هي إلا وسيلة من وسائل الخداع، وأسلوب من أساليب المكر التي يلجؤون إليها، كي يُذلّوا الشعوب الضعيفة وخاصةً المسلمين منها، ليستثمروا خيراتها ، ويبيعوا لأهلها منتجاتهم، وحتى يُفقروا سكانها ، ويُجهّلوا أبناءها لتضعف المعرفة عندهم، وتزيد الحاجة لديهم ، فيمكن تنصيرهم - حسب زعم الاعداء - وهذا مايُر كّزون عليه في بلاد المسلمين عامةً، وخاصةً في جنوب شرقي آسيا، وقد أعلنوا صراحةً عن مخططاتهم هذه

في أندونيسيا حيث ساد الفقر ، وعمّ الجهل ، وتسلّط الخصم ، واستشرى الظلم.

وإن جهل المسلمين بوسائل الأعداء ومخططاتهم نقص كبير ، وضررخطير ، وإن معرفتها والوقوف على مقاصدها وغاياتها التي ترمي إليها نفع عظيم للمسلمين، ودفع لشرّ الأعداء والتخفيف منه ، حيث يعرف المسلمون كيف يدرؤون خطر الأعداء، ويردّون كيدهم في نحرهم، ويُبطلون مخططاتهم، ولهذا كان من واجب القادة والموجّهين التعرّف على ذلك، والوقوف التام على أحوال الأعداء.

إن إحكام السياسة الداخلية لا يتمّ إلا بإحكام السياسة الخارجية لما بينهما من ارتباطٍ من النواحي الفكرية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية، فإن معرفة أهداف العدو ومخططاته واطلاع الرعية عليها يزيد من المعنوية، فيعرفون لماذا يُقاتلون ، ويكونون أقرب إلى النصر - بإذن الله - ويزيد من ارتباط القاعدة بالقيادة ، وفي الوقت نفسه يعمل المسلمون جميعاً لردّ مخططات الخصم وإفشالها، ويزداد الوعي.

غير أن المغرضين وأصحاب الأهواء يُغالطون ، ويُزيّنون الكلام ، ويُنمّقون العبارات ، ويُؤكّدون على أمورٍ وأحكامٍ مسلّمٍ بها، ولا خلاف عليها، ويُركّزون على ذلك حتى يسير معهم القارىء بجوارحه كلها، ويوجّهون بعدها على نقاطٍ أخرى ، وإن كانت دون الأولى إلا أنها أساسية، ويُلقون عليها كلام عدم المبالاة، وكأنها تُخالف الأولى ، ولا تتفق معها أبداً. يقول أحدهم : « فمن كان موقناً - كما هو شأن كل مسلمٍ - بأن للإسلام مصادره الثابتة المتفق عليها، وأن لهذه المصادر ثمرات

يانعـة ، تتمثّل في الأحكام الفقهية التـي جمعها العلماء الأعلام مـن أدلتها التفصيليـة، بجدارةٍ ودقّـةٍ ، ثم اكتسبـت الإجماع - أو اتفاق الجمهـور - فلسوف يُذعن لهذه الأحكام ، معرضـاً عن تصوراته وأفكاره الشاردة وراء سورها.

أما من كـان لا يُقيم وزناً لهذه الأحكام ولا لمصادرها ، ومـن ثم فهو لا يرى الإسـلام أكثر مـن مجموعـة الأفكار التـي يتبنّاهـا الناس عنـه ، مهما تعارضـت أو اتفقت، فما هـو من الإسـلام الذي أنـزله الله على عبـاده في شيءٍ، ولعله لا ينتمي إليه مـن قريبٍ أو بعيد . إذ هو لايوقـن بشيءٍ أنزله الله على الناس ليفهموه فيُنفّذوه. وإنما يوقـن بأفكاره التي يحاول أن يبعثها بين الناس ، ثم يُلـزمهم بها باسم الإسلام ، الذي هـو في اعتباره ليس إلا ظلاً تابعاً لتلك الأفكار .

أمـا نحن ، فـلا نعلـم أن هناك إسلامـاً يتمثّـل في مجمـوعة الأفكـار البشرية ، وتصـوراتهم الذاتية المتناقضـة . بل لا سبيل للمنطق أن يـوقن بمثل هذا اللغو .

وإنما الإسلام فيما عرفنـاه وجزمنا به ، انصياع الإنسـان لخطاب الله عزّ وجـلّ ، تدبّـراً وفهماً ، ثم سلـوكاً وتطبيقـاً ، وخطـابه مـوجود ومسمـوع ، ومعانيه ثابتة ومعروفة . ومن ثم فليس للفكر الإنساني أمامه إلا دور الفهم والاستيعاب .

ثم إن هـذه الشكوى المتواضعـة التي تنم عـن صدقٍ كبيرٍ وتحرّق على الحق، من أخي الأستاذ جودت لفتت نظري إلى جانبٍ آخر من المشكلة، هو مدى انصراف المثقفين الإسلاميين عن الدراسة العلمية (الأكاديمية)

للإسلام، والمتمثلة في دراسة قواعده الفقهية الكلية، وأحكامه الفقهية الجزئية، وقواعده الأصولية المتمثّلة في منهج تفسير النصوص، والاستعاضة عن ذلك بقراءة الكتب الفكرية ، أو الاطلاع على المراجع التاريخية أو الأدبية أو الاجتماعية ، وهذه المراجع لا تعود على القارىء بشيءٍ من القواعد والأحكام الشرعية قط، كما هو واضح ومعلوم.

إنك لن تجد بين عشرة من مجموع المثقفين الإسلاميين ، أكثر من اثنين يدروسون الإسلام من خلال مصادره العلمية التي ألمحنا إليها، والثمانية الآخرون إنما يدرسونه من خلال كتبه الفكرية أو المراجع الاجتماعية الأخرى. فكيف يتأتّى لمن كانت هذه هي بضاعته العلمية عن الإسلام أن يقف في وجه التحدّيات المتنوعة التي يواجهون بها الإسلام والمسلمين، فضلاً عن أن يُحطّمها ويفتح السبل المشرعة إلى تجاوزها ؟.

والغريب أن في هؤلاء المثقفين من يحاول فعلاً أن يجد في الوقائع التاريخية أو التراجم الشخصية أو التراث الأدبي ، مايبصر بحقيقة حكمٍ شرعيٍ أو يحلّ مشكلةً أُثيرت حول حكمٍ شرعيٍ، فكيف يتأتّى ذلك؟ كيف يتأتّى لواقع الحياة الإنسانية المليء بالخطأ والصواب، والفيّاض بالطاعات والمعاصي أن يكون مصدر حكمٍ شرعيٍ، أو مفتاح حلٍّ لمشكلةٍ فقهيةٍ؟

بل إن في هؤلاء المثقفين أيضاً من يحاول أن يثير الريب والشبهات في البنيان الكلي لنظام الإسلام وشرعته، من خلال استعراض وقائع الناس والمرور بأحداث التاريخ أو تراجم بعض الرجال ... فكأن الإسلام هو عصارة واقع الناس وأحوالهم بما فيها من خيرٍ وشرٍّ وحلوٍ ومرٍّ[1].

(١) الجهاد في الإسلام ص ١٤-١٦ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

هناك ملاحظات على هذا الكلام

١ - إن الاهتمام بدراسة العلوم الإسلامية الأساسية والعمل على ترسيخ العقيدة قبل كل شيءٍ نقطة جوهرية، ولا يختلف مسلمان في ذلك. ولكن هناك ما يدل على عدم مصداقية الكاتب في أنه كان يُسمّي الذين يقولون هذا القول بـ: « السفليون » ويعني « السلفيون » وإن كتبه لتطفح مع الأسف - بهذا الاصطلاح. فكلامه للتجارة وللمغالطة.

٢ - إن الخلاف بينه وبين هؤلاء الذين يُتسمّيهم « المثقفون الإسلاميون» يجب ألا يدخل مجال الكتب، ونتيجة هذا الخلاف فهو يحمل عليهم، بل ويفتري حيث لايوجد مسلم في الدنيا يقول: إن القواعد والأحكام الشرعية تُؤخذ من المراجع التاريخية أو الأدبية أو الاجتماعية وهو يكتب بحريةٍ ودعمٍ ولا يوجد من يردّ عليه للظروف القائمة.

ولايملك أي رصيدٍ في مصداقية قوله هذا، إذ حرص أن يكون من بين هؤلاء الذين يُسمّيهم بالمثقفين الإسلاميين على أن يكون من بين القادة، فلم يحرص أحد عليه، فاتجه لمعاداتهم والكلام عليهم، وإذا وجد المجال افترى.

٣- إن إهمال معرفة التاريخ والاجتماع والأدب بهذه الصورة التي يراها الكاتب هو أمر غير مقبولٍ، ويخالف الكلام الذي يدعو له مرحلياً، فالقرآن الكريم قصّ لنا قصص الأنبياء، ومواطنهم، وبعض جوانب من حياتهم الاجتماعية، فدراسة دعوة الأنبياء وخبرهم مع قومهم جزء من التاريخ، كما هي دراسة السيرة النبوية. وطُلب منا أخذ العبرة ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب** ...﴾[1].

(١) سورة يوسف: الآية ١١١.

كما طُلب من الإنسان السير في الأرض ، والنظر فيها ، والتأمّل ، وأخذ العبرة ﴿ **أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾[1].

وقد تكرر طلب السير في الأرض في كتاب الله اثنتي عشرة مرةً لأخذ العبرة.

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى خبر القتال بين الفرس والروم ﴿ الم. غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾[2]. فهل كان هذا النزول للتوجيه نحو التاريخ والاعتبار أم غير ذلك؟.

وعندما كان رسول الله ﷺ ، يستمع إلى الشعراء : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة و... ويقول لهم : (اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق النبل)[3].

وعن البراء قال : قال النبي ﷺ، لحسان : (اهجهم أو هاجهم وجبريل معك)[4].

وعن عائشة ، رضي الله عنها، قالت : كان رسول الله ﷺ ، يضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ ، أو قال : ينافح عن رسول الله ﷺ، ويقول رسول الله ﷺ : (إن الله يُؤكّد حسان بروح القدس ما ينافح أو يفاخر عن رسول الله)[5].

(١) سورة الروم : الآية ٩. (٢) سورة الروم : الآيات ١-٥.
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٤٩٠) في فضائل الصحابة . باب حسان بن ثابت.
(٤) متفق عليه. (٥) أخرجه الترمذي برقم (٢٨٤٩) في الأدب.

فهل كـان صحابة رسـول الله ﷺ، يحفظون هـذا الشعر الذي يقـوله : حسان بن ثـابت، أو كعب بن مـالك، أو عبدالله بن رواحـة وغيرهم، وما يردّ عليهم أم يمتنعون عن ذلك؟ وكيف إذن وصل إلينا هذا الشعر ؟

وكما كان حسـان شاعر رسـول الله ﷺ، كان ثـابت بن قيـس خطيب رسول الله ﷺ.

ولكـن أصحاب الأهـواء والمصـالح، وعبـد الطـاغـوت يُفاخـرون بما تعلّموا، ويتاجرون به ، ويعيبون على ما تعلم غيرهم ، وينتقدونه ، ولو كان فيه الخير ، وتعلّمه السلف من قبل. ويطـالبون أن يكفّوا عن الاطلاع على أي شيءٍ من الثقـافة ، وخـاصةً يجب أن لا يقبـل أحد مـن المسلمين على شيءٍ مما يضعـه الأعداء أو الطغـاة ضد المسلمين لأن هـذا يثير المسلمين فيهبّوا للجهاد ، وعنـدها تتزعزع مراكـز الطغاة، وتتزلزل مـواقع أصحاب الهوى لأنهم بطائن الظـالمين، وقد خلت لهم السـاحة بغياب أهـل العلم بُعداً ، وقهراً، وانتهاءً ، فسرحت البطائن ومرحت ، وتعالمت ، وادّعت أنها فعلت مالم تفعله الأوائل.

الفصل الرابع:

جهاد المستضعفين

يقصد بالمستضعفين هنا المسلمون الذين لا يجدون أرضاً يعيشون فيها بطمأنينةٍ لنقمة مجتمعهم المخالف لهم بالعقيدة ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . ولم يجدوا مجتمعاً آخر يقبلهم لظروفٍ اجتماعيةٍ أو سياسيةٍ ، فأقاموا في منطقةٍ منفردين ، فسمح لهم موقع منطقتهم هذه بالثأر من الذين أخرجوهم من ديارهم ، والانتقام من الذين ألحقوا بهم الظلم، فقاموا يُغيرون على قوافلهم، ويقعدون لهم كلَّ مرصدٍ ، ويُقاتلونهم ، فقتالهم هذا جهاد في سبيل الله .

بعد صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ، ومشركي قريش، رجع رسول الله ﷺ ، إلى المدينة. وكان من جملة شروط الصلح ، على أنه من أتى محمداً من قريشٍ بغير إذن وليه ردّه عليهم. « فلما قدم رسول الله ﷺ، المدينة أتاه أبو بصير عتبة بن أَسِيد بن جارية ، وكان ممن حُبس بمكة ، فلما قدم على رسول الله ﷺ، كتب فيه أزهر بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زُهرة ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي إلى رسول الله ﷺ، وبعث رجلاً من بني عامر بن لُؤي، ومعه مولىً لهم، فقدما على رسول الله ﷺ، بكتاب الأزهر والأخنس، فقال رسول الله ﷺ :

(يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القـوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلـق إلى قومك) قال : يـا رسول الله ، أتردّني إلى المشركين يفتنـونني في ديني؟ قال : (يا أبا بصير ، انطلق، فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً) .

فـانطلق معهما، حتـى إذا كـان بذي الحليفـة [1]، جلـس إلى جـدارٍ، وجلس معـه صاحباه، فقـال أبو بصير : أصارم سيفـك هذا يا أخـا بني عامرٍ؟ فقال : نعم ؛ قال : انظر إليه ؟ قال : انظر ، إن شئت .فاستلّه أبو بصير ، ثـم علاه بـه حتى قتـله. وخـرج المولـى سريعاً حتـى أتى رسول الله ﷺ، وهـو جـالس في المسجد ، فلما رآه رسـول الله ﷺ، طالعاً ، قال : (إن هذا الرجل قد رأى فزعاً) ؛ فـلما انتهى إلـى رسـول الله ﷺ، قال : (ويحك ! مالـك)؟ قال : قتل صـاحبكم صاحبـي. فوالله ما بـرح حتى طلع أبو بصير متوشحاً بالسيف، حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال : يا رسول الله ، وفت ذمّتك، وأدّى الله عنك، أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بديني أن أُفتـن فيه، أو يُعبث بي. فقال رسول الله ﷺ : (ويـل أُمّه مُسْعِر حربٍ لو كان معه رجال).

ثم خـرج أبو بصير حتى نـزل العيص [2]، من نـاحية ذي المروة ، على ساحل البحر، بطـريق قريشٍ التي كانوا يأخـذون عليها إلى الشام. وبلغ المسلمـين الذين كانـوا احتبسوا بمكة قول رسـول الله ﷺ، لأبي بصيـر : (ويـل أُمّه مُسْعِـر حـرب لو كـان معـه رجـال) فخرجـوا إلى أبي بصير

(١) ذو الحليفة : قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، وهي ميقات أهل المدينة.
(٢) العيص : هو موضع في بلاد بني سُليم به ماء، يقال له : ذنبان العيص.

بالعيص، فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلاً ، وكانوا قد ضيّقوا على قريشٍ، لا يظفرون بأحدٍ منهم إلا قتلوه ، ولا تمرّ بهم عِير إلا اقتطعوها ، حتى كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ، تسأله بأرحامها إلا آواهم، فلا حاجة لهم بهم. فآواهم رسول الله ﷺ، فقدموا عليه المدينة[1].

لم يكن رسول الله ﷺ، إلا ليطلب من أبي بصيرٍ العودة إلى قومه، لأنه قد أعطى قريشاً عهداً بذلك، ولم يكن رسول الله ﷺ، لينقض عهداً. ولو أن الأمر كان صعباً في دفع مسلمٍ إلى المشركين ، غير أن الالتزام بشرع الله أولى، وهو تنفيذ العهد ، ويظهر الالتزام بالمواقف الصعبة يقول تعالى : ﴿ **وبعهد الله أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكّرون**﴾[2]. ويقول سبحانه: ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون**﴾[3].

ويقول عزّ وجلّ : ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً** ﴾[4].

ويقول جلّ ثناؤه ﴿ .. **والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾[5].

وما كان لأبي بصير إلا أن يطيع رسول الله ﷺ، ويُنفّذ ما يؤمر به وهو ما فعله إذ امتثل، وسار مع العامري والمولى الذي معه، وقدّر الموقف، وعرف أنه لو وصل إلى مكة لناله من المشركين أذىً كثير لا يطيقه ، وسيُقتل في النهاية ، وذلك تحذيراً وتهديداً للذين احتبسوا في مكة كي لا يسلك أحد مسلك أبي بصير ، ومن تقدير الموقف هذا فقد قتل أبو بصير الرجل

(١) سيرة ابن هشام. (٢) سورة الأنعام : الآية ١٥٢. (٣) سورة النحل : الآية ٩١.
(٤) سورة الإسراء : الآية ٣٤. (٥) سورة البقرة : الآية ١٧٧.

العامري ، ورجع إلى رسول الله ﷺ، تقديراً أن رسول الله ﷺ، قد وفّى ذمّته، وأرسله مع العامري والمولى تنفيذاً لصلح الحديبية، وظنّ أنه بإمكانه البقاء في المدينة مع إخوانه المسلمين ، فقال لرسول الله ﷺ : وفت ذمتك، وأدّى الله عنك ، وأسلمتني، ولكن رسول الله ﷺ ، لا يقبل هذا، ويُعدّ في مثل هذه الحال كأنه هو الذي حرّض أبا بصيرٍ على ما قام به. ورسول الله ﷺ، لا يمكن إلا أن يفي بعهده الذي أبرمه في الحديبية ، ولكنه في الوقت نفسه لم يلُم أبا بصير على فعلته التي فعلها، وعدم اللوم إشارةً إلى الرضا بذلك، وقال له : (ويل أُمّه مُسْعِر حربٍ لو كان معه رجال) ، وكأن هذا الكلام تنبيه إلى عدم العودة إلى مكة، وإلى ضرورة وجود رجال معه ليحمي نفسه، ويُؤدّب قريشاً، وهذا ما فهمه أبو بصير، فذهب إلى (العيص)، وهذا ما فهمه المسلمون الذين احتبسوا في مكة ، فكان الواحد منهم يتخلّص من حبسه بوسيلةٍ من الوسائل، ويلتحق بأبي بصيرٍ حتى شكّلوا قوّة أقضّت مضاجع قريشٍ. ولو وصل حديث رسول الله ﷺ، مع أبي بصير إلى مشركي قريش لفهموا منه ذلك، ولكن حُجب عنهم.

وإن سكوت رسول الله ﷺ، عن أفعال المسلمين الذين في (العيص) دليل الرضا أيضاً حيث لم يطلب منهم الكفّ عن تلك الأعمال ، وكأنه عدّهم جماعةً خاصةً تتصرّف من ذاتها، وإن كانوا من المسلمين. وقد انتهت قريش إلى ذلك، وطلبت من رسول الله ﷺ، أن يضمّ إليه جماعة (العيص) في المدينة ليكونوا ضمن المسلمين ملتزمين بصلح الحديبية، وبقوا يسألونه الرحم، وأنهم ليسوا بحاجةٍ إليهم حتى آواهم، وقدموا عليه المدينة ، وانتهت قضية أبي بصير .

غير أن الذين يتعاطفون مع مشركي قريشٍ يرون أن الخطأ الكبير كان

من جانب أولئك الذين احتبسوا في مكة من المسلمين ، إذ تقول قريش : إن هذه الفئة قد خرجت على أعراف المجتمع، وقد نُصحت فأصرّت على خروجها، ودُعيت إلى العودة لدين آبائها فأبت إلا اتباع محمدٍ، فحاولنا الضغط عليها فما ازدادت إلا تمسّكاً بما آمنت، فما كان من قريشٍ إلا أن عذّبت أفراد هذه الفئة، وأذاقتها مرّ العذاب، وحبستها، واستمرّ الخارجون في إصرارهم حتى مات بعضهم تحت العذاب . فغير المؤمنين يقبلون كلام المشركين، والمغفّلون وأصحاب الأهواء لا يسمعون إلا كلام قريشٍ المستبدّة بالسلطةٍ، المهيمنة بالقوة. فبطائن المتسلّطين يسمعون من طرفٍ واحدٍ، وفي الوقت نفسه يحملون حقداً لسبب من الأسباب على الطرف الآخر. فلم يسمعوا أبداً استفزازات المتسلّطين ، واضطهاد المظلومين، وملاحقة المساكين ، والاعتداء حتى على أسر المسلمين ، والقيام بأعمالٍ إجراميةٍ ونسبتها إلى الطرف الآخر ، وصوت المتسلّطين مسموع ووسائل الإعلام بيدهم، ولاصوت للأبرياء المتهمين، ولا بواكي لهم ، فأين العدل؟ وأين الإنصاف والسماع من الطرفين عن قرب؟ .

زار أحد المتعالمين المشرقيين الجزائر ، وفي جعبته أحقاد مكدّسة، فأثنى في كلامه على أحد المتسلّطين من غير المسلمين عقيدةً، وبالغ، وأطنب حتى أثار حفيظة المستمعين وجميعهم من المسلمين ، فقال أحدهم للمحاضر وهو يعلم أن المتكلم غير مؤمنٍ بما يقول : يحشر المرء مع من أحب ، حشرك الله وإياه. فازداد الحقد حقداً، فما ذكر بعدها المسلمون في الجزائر أمامه إلا وصبّ جام غضبه عليهم، ووجّه إليهم مختلف الاتهامات ، متنازلاً عن الأخلاق الإسلامية.

الفصل الخامس:

الاستشهاد

هو أن يلقي المرء بنفسه في مكانٍ خطيرٍ لا يتوقّع الخروج منه ، ولا يأمل بالنجاة منه، في سبيل نصرة المسلمين، أو إنقاذهم من مهلكةٍ محتملةٍ، أو التخفيف عنهم من أذىً يُصيبهم بإرهاب العدو وإخافته، يبتغي من ذلك الشهادة، ويطلب الآخرة ، لا يريد سوى ذلك شيئاً.

١ - خرج المسلمون لقتال المرتدين ، ومشى البراء بن مالك، رضي الله عنه، تحت لواء خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، الذي سار إلى جهة اليمامة، يُقاتل مسيلمة الكذّاب، ويُعيد بني حنيفة إلى صوابهم، وكان بنو حنيفة يومئذٍ كثيرين يزيد عددهم على أربعين ألفاً.

التقى الطرفان ، ودارت رحى الحرب، وهُزم المسلمون ، ووصلت جماعة الكذّاب إلى فسطاط خالد. ثم تداعى المسلمون ، فقال ثابت بن قيس : بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ! اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء - يعني أهل اليمامة - وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء - يعني المسلمين - ثم جالد بسيفه حتى قُتل. واندفع زيد بن الخطاب فقاتل حتى قُتل ،

وأصابت العُرَواءُ البراءَ بن مالك، وكانت تأخذه إذا حضر الحرب، إذ يرتعد ، ويقع على الأرض، ثم لا يلبث أن ينتفض، ويهبّ كالأسد. وقد قام بعد لحظةٍ من وقوعه على الأرض ، ووثب، وأرعد ، وقال : أين يا معشر المسلمين؟ أنا البراء بن مالك، هلّموا إليّ. وفاءت فئة من الناس، فقاتلوا بني حنيفة حتى غلبوهم - بإذن الله - وخلص المسلمون إلى مُحكَّم اليمامة، وهو مُحكَّم بن الطفيل، الذي قاتل قتالاً شديداً، فرماه عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق بسهمٍ فوضعه في نحره فقتله. ثم زحف المسلمون حتى ألجؤوا بني حنيفة إلى الحديقة، حديقة الموت ، فتحصّنوا فيها. فنظر البراء فرأى أن الحصار سيطول ، وبنو حنيفة في حصنهم، وفي الحديقة من الأقوات ما يكفي أياماً، والأعداء في ديارهم تأتيهم الأمداد ، وتصل إليهم النجدات، والمسلمون بعيدون عن ديارهم، يصعب عليهم وصول المدد ، لذا لا بدّ من عملٍ حاسمٍ ، فربما تعب المسلمون من الحصار ، وقلّت عندهم الأزواد ، وخرج عليهم بنوحنيفة، ونالوا منهم. فقال البراء : يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة. فقال الناس : لا تفعل يابراء، فقال : والله لتَطرحُنّي عليهم فيها. فاحتملوه على ترسٍ، على أسنة رماحهم، وألقوه في الحديقة، فاقتحم إليهم، وشدّ عليهم، وقاتل حتى فتح باب الحديقة، ودخل المسلمون عليهم، وقاتلوهم حتى قُتل مسيلمة الكذاب عدوّ الله، قتله وحشي - قاتل الحمزة بن عبدالمطلب - ورجل من الأنصار .

وجُرح البراء يؤمئذٍ بضعةً وثمانين جرحاً، لذلك أقام عليه خالد بن الوليد شهراً يُداوي جراحه. واستُشهد أكثر من ستمائةٍ من المسلمين، وقُتل من بني حنيفة سبعة آلاف في فضاء عقرباء، ومثلهم في حديقة

الموت. ودخل المسلمون بلاد اليمامة كلها.

فعمل البراء بـن مالـك ، رضي الله عنه ، عمليـة استشهاديـة ، إذ أُلقي وسط حشـودٍ من الأعـداء مسـتعدين للقـتال ، متوثبين للطعان، فنـجا - بإذن الله - وأدّى مهمتـه إذ فتح بـاب الحديقة للمسلمين، وبـالتقديـر المادي البشري لا يمكنه النجاة.

٢- وحاصر المسلمون مدينة « تُسْتَرَ » وقـائدهم أبو سبرة بن أبي رهم، ابـن عمة رسـول الله ﷺ، وكان أبـو موسـى الأشعري على أهـل البصرة ، والنعمان بن مُقَـرِّن على أهل الكـوفة . وطـال الحصار ، وكـانت المعـارك سجالاً، وقد ضاق الأمر على المؤمنين، وقـال المسلمون : أَقْسِمْ يا براء على ربك ليهزمنّهم لنا، فقـال : اللهم اهزمهم لنـا ، واستشهدني . فهزموهم - بإذن الله - حتـى أدخلوهـم خنادقهم، ثـم اقتحموهـا عليهم، وأرزوا إلى مـدينتهم، وأحـاطوا بها، فبينماهـم على ذلـك، وقد ضـاقت بهم المدينـة، وطالت حربهم، خرج إلى النعمان رجل فاستـأمنه على أن يدلّه على مدخلٍ يُؤتـون منه، وهو مجرى الماء. فاستشـار القائد ، وندب الناس. وكـان ممن دخـل المجرى مجزأة بـن ثور فلما خـرج ، وكان أول الـداخلين ، شدخـوه بصخرةٍ فقُتل، فخـرج البراء بن مالك ، فقـاتل الأعداء حتى قُتـل، قتله الهُرْمُزان، وقد شاغل الخصم فخرج الناس. وفتح الله على المسلمين.

ودخول مجرى الماء عملية استشهـادية ، فيها مخاطرة ، ويتـوقّع الشهادة كل مـن دخل ، لأنهم يخرجون فـرداً فرداً ، إضـافةً إلى أنها قد تكـون حيلةً وخدعةً من العـدو، وبالواقع فقد قُتل مجزأة بـن ثور أول الداخلين. ولكن الذين دخلوا إنما كان دخولهم طلباً للشهادة في سبيل الله.

٣- استمرّ حصار دمشق عدة أشهرٍ، وجاء وقت البرد ، وكان قاسياً، فصعب القتال ، ولا بدّ من حسم الموقف، فاستدعى خالد بن الوليد بعض صناديد المسلمين ممن معه ، وأحضر جنده عند الباب « باب شرقي » الذي كان عليه ، وقال لهم : إذا سمعتم تكبيرنا فوق الأسوار فارقوا إلينا. ثم قطع الخندق هو وأصحابه سباحةً ، وقد وضعوا قرباً في أعناقهم تُساعدهم على السباحة، وأثبت خالد وصحبه السلالم على شرفات السور ، وصعدوا عليها ، فلما صاروا أعلى السور رفعوا أصواتهم بالتكبير لإرهاب العدو ، ونزلوا على حراس الباب فقتلوهم، وفتحوا الباب عنوةً، واندفع الجند من الباب إلى الداخل ، وفُتحت دمشق .

فهذه العملية استشهادية حيث فيها مجازفة ، إذ ألقى خالد ومن معه بأنفسهم إلى داخل المدينة بين أعداء فيمكن أن لا يخرجوا فهم بضعة أفراد بين عشرات الألوف ، كما أنهم محصورون عن بقية الجند ، وثيابهم مليئة بالماء يصعب الحركة والقتال فيها، وفي وقت شديد البرد ، ولكنهم يطلبون الشهادة في سبيل إعلاء كلمة الله . فكان لهم ما أرادوا .

وهناك عمليات استشهادٍ كثيرة في التاريخ الإسلامي وخاصةً في صدر الإسلام أيام صحابة رسول الله ﷺ، الذين هم قدوتنا.

واليوم إذا جاء عدوّ ، واقتحم منطقةً من بلاد المسلمين ، وتحكّم بها ، وبأهلها، فسلب أرضهم ، وأخذ أملاكهم ، وتسلّط على العباد ، فاضطهد المسلمين، وليس لديهم من قوةٍ تطرد الغاصب، وتُرهب الطاغية المتسلّط، والمسلمون من حولهم ، لايدعمون إخوانهم، ولا يمدّون لهم يد العون ، ولا يسمحون للأفراد بالجهاد لمساعدة المستضعفين، بل قد ألغوا الجهاد ،

فعندها يمكن لأبناء المنطقة المغصوبة أن يقوموا بعملياتٍ فدائيةٍ يُضحّون بـأنفسهم في سبيـل إرهاب العـدوّ ، وجـعله يعمل على الـرحيل نتيجـة الخوف ، ونرجو من الله أن تكون مثل هـذه العمليات استشهاديةً، ونرجو أن يكون الأفراد الـذين قاموا بها في عداد الشهـداء ، ومن البررة الأخيار ، مـادامـوا قـد ضحّـوا بأنفسهـم في سبيـل الله، لطـرد أعـداء الله، ولنصرة المسلمين لتكون كلمة الله هي العليا. المهم أن يكـون هذا المجاهد مؤمناً، قدّم نفسه يبتغي ثـواب الله، لإرهاب عدوّ الله ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا مـن شيءٍ في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾[1]. فهذا عمل فدائي في سبيل الله، ونرجو لصاحبه الشهادة، وقد قدّم نفسه، وسيُوفّى له أجره إن شاء الله.

إن هذه العمليات الفدائية استشهادية ، ولكن أعداء الإسلام يسمّونها انتحاريـة أي أن هذا الفدائي قد قتـل نفسه ، يُمثّلونها بذاك الـذي أحب فتاةً فلـم يصل إليهـا فانتحـر . وذاك الـذي ضـاقت عليـه الدنيـا بكثرة الهموم ، وزيـادة الديون ، وضيق ذات اليـد، وقلة الإخوان فانتحـر ، وقد يئس مـن رحمة الله. فالمنتحر غير مـؤمن بالله، وقـديئس من الـرحمة، فقتل نفسه من أجـل نفسه في سبيل دنيا. والشهيـد مؤمن بالله، رغـب في ثواب الله، فقدّم نفسه في سبيل الله، إرضاءً لله .

فالمهمّ النية فمن قدّم نفسه للدنيا ، فهو وما قدّم له. ومن قدّمها لله فهو في سبيـل الله، والله يُـوفّيه أجـره غير منقـوص. عـن عمر بـن الخطـاب،

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .

رضي الله عنه، قال : سمعت النبيّ ﷺ، يقول : (يا أيها الناس، إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىءٍ مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1].

عن عائشة، رضي الله عنها، قالت : قال رسول الله ﷺ : (يغزو جيشٌ الكعبة ، فإذا كانوا ببيداء من الأرض يُخسف بأولهم وآخرهم) . قالت : قلت : يا رسول الله ، كيف يُخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم ، ومن ليس منهم؟. قال: (يُخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم)[2].

عن أم سلمة ، رضي الله عنها، قالت : قال رسول الله ﷺ : (يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث. فإذا كانوا ببيداء من الأرض خُسف بهم) فقلت : يا رسول الله ! فكيف بمن كان كارهاً ؟ قال : (يُخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته)[3].

عن عائشة، رضي الله عنها، قالت : سئل رسول الله ﷺ، عن الهجرة، فقال : (لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونيّة ، وإذا استنفرتم فانفروا)[4].

وينتقد المرجفون العمليات الاستشهادية بأنه يُقتل فيها أناس أبرياء لاعلاقة لهم بالحرب ، فإثمهم على من كان السبب.

ولكن هؤلاء الذين يسمّونهم أبرياء إنما هم من المستعمرين الغاصبين الذين دخلوا الديار بالقوة، وطردوا أهلها، وأقاموا مكانهم، وأخذوا أملاكهم، واعتدوا على الأعراض. وإن لم يكونوا هم أنفسهم ، فهم من

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.

أبنائهم وذراريهم ، فهم محاربون وإن لم يحملوا السلاح.

ثم إن الحروب الحديثة كلها من هذا النوع فقصف الطيران هل يصيب المحارب فقط ، ويستثنى الآمن؟ وضرب المدفعية هل يحدد البريء من المقاتل؟ وهل تميّز هذه الحروب بين حملة السلاح وبين الأطفال والنساء؟.

فالمهم بالعملية الاستشهادية أن ترهب العدو ، وتجعله يرحل أو على الأقل يُغيّر من سياسته التعسفية . وأن يكون العمل خالصاً لله، وصاحبه مؤمناً يبتغي بفعله ثواب الله ورضاه.

ويُعدّ بعضهم هذه الحركات الفدائية الاستشهادية إلقاء بالنفس إلى التهلكة ، ويستشهدون بقوله تعالى : ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾[1].

أولاً : قال الفخر الرازي : قوله : ﴿ **ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ اختلف المفسرون فيه، فمنهم من قال : إنه راجع إلى نفس النفقة، ومنهم من قال : إنه راجع إلى غيرها، أما الأولون فذكروا فيه وجوهاً .

الأول : أن لا ينفقوا في مهمات الجهاد أموالهم فيستولي العدو عليهم ويُهلكهم، وكأنه قيل : إن كنت من رجال الدين فأنفق مالك في سبيل الله، في طلب مرضاته، وإن كنت من رجال الدنيا فأنفق مالك في دفع الهلاك والفرد عن نفسك.

الثاني : إنه تعالى لما أمره بالإنفاق نهاه عن أن ينفق كل ماله، فإن إنفاق كل المال يقضي إلى التهلكة عند الحاجة الشديدة إلى المأكول والمشروب والملبوس، فكان المراد ماذكره في قوله : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم**

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٥.

يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾[1]، وفي قوله : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط﴾**[2].

وأما الذين قالوا : المراد منه غير النفقة فذكروا فيه وجوهاً :

الأول : أن يُخلّوا بالجهاد فيتعرّضوا للهلاك الذي هو عذاب النار فحثّهم بذلك على التمسّك بالجهاد وهو كقوله تعالى : ﴿ **ليهلك من هلك بينة﴾**[3].

الثاني : المراد من قوله تعالى ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** أي لا تقتحموا في الحرب بحيث لا ترجون النفع، ولا يكون لكم فيه إلا قتل أنفسكم فإن ذلك لا يحلّ ، وإنما يجب أن يقتحم إذا طمع في النكاية وإن خاف القتل ، فأما إذا كان آيساً من النكاية، وكان الأغلب أنه مقتول فليس له أن يقوم عليه ، وهذا الوجه منقول عن البراء بن عازب. ونقل عن أبي هريرة ، رضي الله عنه، أنه قال في هذه الآية : هو الرجل يستقل بين الصفين ، ومن الناس من طعن في هذا التأويل ، وقال : إن هذا القتل غير محرم ، واحتجّ عليه بوجوه .

أ - روي أن رجلاً من المهاجرين حمل على صفّ العدوّ فصاح به الناس : فألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب الأنصاري : نحن أعلم بهذه الآية ، وإنما نزلت فينا : صحبنا رسول الله ﷺ، ونصرناه، وشهدنا معه المشاهد ، فلما قوي الإسلام، وكثر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا ومصالحنا ، فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد .

ب - روى الشافعي، رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ، ذكر الجنة ،

(١) سورة الفرقان : الآية ٦٧.
(٢) سورة الإسراء : الآية ٢٩.
(٣) سورة الأنفال : الآية ٤٢.

فقال له رجل من الأنصار : أرأيت يا رسول الله إن قُتلتُ صابراً محتسباً؟ قال عليه الصلاة والسلام : (لك الجنة) فانغمس في جماعة العدو فقتلوه بين يدي رسول الله. وأن رجلاً من الأنصار ألقى درعاً كانت عليه حين ذكر النبي ، عليه الصلاة والسلام، الجنة، ثم انغمس في العدو فقتلوه.

حـ - روي أن رجلاً من الأنصار تخلّف عن بني معاوية فرأى الطير عكوفاً على من قُتل من أصحابه، فقال لبعض من معه : سأتقدّم إلى العدوّ فيقتلونني، ولا أتخلّف عن مشهدٍ قتل فيه أصحابي ، ففعل ذلك ، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال فيه قولاً حسناً.

د - روي أن قوماً حاصروا حصناً، فقاتل رجل حتى قُتل، فقيل : ألقى بيده إلى التهلكة، فبلغ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ذلك، فقال : كذبوا أليس يقول الله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله**﴾[1]. ولمن نصر ذلك التأويل أن يجيب عن هذه الوجوه فيقول: إنا إنما حرمنا إلقاء النفس في صف العدو إذا لم يتوقّع إيقاع نكايةٍ منهم، فأما إذا توقع فنحن نجوز ذلك، فلِمَ قلتم إنه يوجد هذا المعنى في هذه الوقائع.

الثالث : في تأويل الآية أن يكون هذا متصلاً بقوله : ﴿ **الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص**﴾[2] أي فإن قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه فإن الحرمات قصاص، فجازوا اعتداءهم عليكم ولا نحملنكم حرمة الشهر على أن تستسلموا لمن قاتلكم فتهلكوا بترككم القتال فإنكم بذلك تكونون ملقين بأيديكم إلى التهلكة.

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٧.

(٢) سورة البقرة : الآية ١٩٤.

الرابع : في التـأويل أن يكون المعنى : أنفقوا في سبيـل الله، ولا تقولوا : إنا نخـاف الفقر إن أنفقنا فنهلـك، ولا يبقى معنا شيء، فنُهـوا أن يجعلوا أنفسهم هالكين بالإنفاق، والمراد من هـذا الجعل والإلقاء الحكم بذلك، كما يقال : جعل فلان فلاناً هالكاً، وألقاه في الهلاك إذاحكم عليه بذلك.

الخامس : ولا تلقـوا بأيديكـم إلى التهلكة هو الـرجل يصيب الـذنب الذي يـرى أنه لا ينفعه معـه عمل فذلـك هو إلقاء النفـس إلى التهلكة، فالحاصل أن معناه النهي عن القنوط من رحمة الله لأن ذلك يحمل الإنسان على ترك العبودية والإصرار على الذنب.

السادس : يحتمل أن يكون المراد : وأنفقوا في سبيل الله، ولا تلقوا ذلك الإنفاق في التهلكة والإحبـاط، وذلك بأن تفعلوا بعد ذلـك الإنفاق فعلاً يُحبط ثوابـه إما بتذكير المنة، أو بذكـر وجوه الرياء والسمعـة، ونظيره قوله تعالى : ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾[1]،[2].

ثانياً : وقـال أبـو محمـد عبد الحق بـن عطيـة : وروي عـن أبي أيـوب الأنصاري أنـه كان على القسطنطينية فحمـل رجل على عسكـر العدو ، فقال قوم : ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبـو أيوب : لا . هذه الآية نزلت في الأنصار حين أرادوا - لمّا ظهـر الإسلام - أن يتركـوا الجهاد ، ويعمـروا أموالهم، وأما هذا فهـو الذي قال الله فيه : ﴿ **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله** ﴾[3].

وقال حـذيفة بـن اليمان، وابن عباس، والحسـن ، وعطاء ، وعكـرمة ، وجمهور الناس : المعنى : لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله،

(١) سورة محمد : الآية ٣٣. (٢) تفسير الفخر الرازي.
(٣) سورة البقرة : الآية ٢٠٧. وروى الحديث أبو داود، والترمذي، والنسائي.

وتخافوا العيلة ، فيقول الرجل : ليس عندي ما أنفق. وقال قوم : المعنى ، لا تقنطوا من التوبة.

وقال البراء بن عازب ، وعبيدة السلماني : الآية في الرجل يقول : قد بلغت في المعاصي، فلا فائدة في التوبة ، فينهمك بعد ذلك.

وقال زيد بن أسلم : المعنى لا تسافروا في الجهاد بغير زادٍ، وقد كان فعل ذلك قوم فأدّاهم ذلك إلى الانقطاع في الطريق، أو الكون عالة على الناس[1].

ثالثاً: وقال القرطبي : فيه ثلاث مسائل :

الأولى : روى البخاري عن حديفة : ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾[2] قال : نزلت في النفقة . وروى يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران ، قال : غزونا القسطنطينية ، وعلى الجماعة عبدالرحمن ابن الوليد، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو ، فقال الناس : مه مه، لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب : سبحان الله ! نزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار ، لما نصر الله نبيه ، وأظهر دينه، قلنا : هلم نُقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله، عزّ وجل ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله** ﴾ الآية. والإلقاء باليد إلى التهلكة أن نُقيم في أموالنا ونصلحها، وندع الجهاد . فلم يزل أبو أيوب مجاهداً في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية، فقبره هناك . فأخبرنا أبو أيوب أن الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد في سبيل الله ، وأن الآية نزلت في ذلك، ورُوي مثله عن حذيفة، والحسن وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك .

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. (٢) سورة البقرة الآية ١٩٥.

قلت : وروى الترمذي عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران هذا الخبر بمعناه، فقال : « كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم ، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر ، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد ، فحمل رجل من المسلمين على صفّ الروم حتى دخل فيهم ، فصاح الناس ، وقالوا ، سبحان الله ! يلقي بيديه إلى التهلكة. فقام أبو أيوب الأنصاري، فقال : يا أيها الناس إنكم تتأولون هذا التأويل، وإنما أُنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لما أعزّ الله الإسلام ، وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعضٍ سرّاً دون رسول الله ﷺ : إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعزّ الإسلام ، وكثُر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيّه ﷺ ، يردّ عليه ما قلنا : ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾[1]. فكانت التهلكة القيام على الأموال وإصلاحها، وتركنا الغزو ، فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم . قال أبو عيسى : حديث حسن غريب صحيح. وقال حذيفة بن اليمان ، وابن عباس ، وعكرمة ، وعطاء، ومجاهد ، وجمهور الناس : المعنى : لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله، وتخافوا العيلة، فيقول الرجل : ليس عندي ما أنفقه. وإلى هذا المعنى ذهب البخاري إذ لم يذكر غيره ، والله أعلم. قال ابن عباس : أنفق في سبيل الله، وإن لم يكن لك إلا سهم أو مِشْقَص[2]، ولايقولن أحدكم : لا أجد شيئاً . ونحوه عن السُّدّيّ : أنفق ولو عقالاً، ولا تلقي بيدك إلى التهلكة، فتقول : ليس عندي شيء. وقول ثالث قاله ابن عباس، وذلك أن رسول الله ﷺ، لما أمر الناس بالخروج إلى الجهاد قام

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٥.

(٢) المشقص : نصل عريض ، أو سهم فيه نصل، يرمى به الوحش.

إليه ناس من الأعراب حاضرين بالمدينة ، فقالوا : بماذا نتجهّز ! فوالله مالنا زاد ، ولا يُطعمنا أحد ، فنزل قوله تعالى : ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله** ﴾ يعني تصدّقوا يا أهل الميسرة في سبيل الله، يعني في طاعة الله ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ يعني : ولا تُمسكوا بأيديكم عن الصدقة فتهلكوا ؛ وهكذا قال مقاتل. ومعنى قول ابن عباس : ولا تُمسكوا عن الصدقة فتهلكوا : أي لا تمسكوا عن النفقة على الضعفاء، فإنهم إذا تخلّفوا عنكم غلبكم العدو فتهلكوا، وقول رابع، قيل للبراء بن عازب في هذه الآية : أهل الرجل يحمل على الكتيبة؟ فقال : لا. ولكنه الرجل يصيب الذنب فيُلقي بيديه، ويقول : قد بالغت في المعاصي، ولا فائدة في التوبة، فييأس من رحمة الله فينهمك بعد ذلك في المعاصي. فالهلاك : اليأس من رحمة الله، وقاله : عَبيدة السلماني. وقال زيد بن أسلم : المعنى لا تسافروا في الجهاد بغير زادٍ ، وقد كان فعل ذلك قوم فأدّاهم ذلك إلى الانقطاع في الطريق، أو يكون عالة على الناس. فهذه خمسة أقوال . و ﴿ **سبيل الله** ﴾ هنا : الجهاد ، واللفظ يتناول بعد جميع سبله. والباء في ﴿ **بأيديكم** ﴾ زائدة، التقدير : تلقوا أيديكم. ونظيره : ﴿ **ألم يعلم بأن الله يرى** ﴾. قال المبرد : ﴿**بأيديكم**﴾ أي بأنفسكم، فعبرّ بالبعض عن الكل، كقوله : ﴿ **فبما كسبت أيديكم**﴾، ﴿ **بما قدمت يداك**﴾ . وقيل : هذا ضَرْب مثلٍ ، تقول ؛ فلان ألقى بيده في أمر كذا إذا استسلم ، لأن المستسلم في القتال يُلقي سلاحه بيديه، فكذلك فعل كل عاجزٍ في أي فعلٍ كان ، ومنه قول عبد المطلب : والله إن إلقاءنا بأيدينا للموت لعجز . وقال قوم : التقدير لا تلقوا أنفسكم بأيديكم، كما تقول : لا تفسد حالك برأيك. والتهلكة (بضم اللام) مصدر من هَلَك يَهْلِك هلاكاً وهُلْكاً وتَهْلُكة ، أي لا تأخذوا

فيما يهلككم، قاله الزجّاج وغيره ، أي إن لم تنفقوا عصيتم الله وهلكتم ، وقيل : إن معنى الآية : لا تمسكوا أموالكم فيرثها منكم غيركم، فتهلكوا بحرمان منفعة أموالكم ، ومعنى آخر : لا تمسكوا فيذهب عنكم الخلف في الدنيا والثواب في الآخرة. ويقال : ﴿ **ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ يعني : لا تنفقوا من حرام فيردّ عليكم فتهلكوا. ونحوه عن عكرمة قال : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ قال : ﴿ **لا تيمموا الخبيث منه تنفقون**﴾. قال الطبري : قوله : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ عام في جميع ما ذكر لدخوله فيه ، إذ اللفظ يحتمله.

الثانية : اختلف العلماء في اقتحام الرجل في الحرب وحمله على العدوّ وحده، فقال القاسم بن مخيمرة ، والقاسم بن محمد ، وعبدالملك من علمائنا : لا بأس أن يحمل الرجل وحده على الجيش العظيم إذا كان فيه قوة، وكان لله بنيّةٍ خالصةٍ ، فإن لم تكن فيه قوة فذلك من التهلكة . قيل : إذا طلب الشهادة ، وخلصت النية فليحمل، لأن مقصوده واحد منهم، وذلك بيّنٌ في قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله**﴾. وقال ابن خُوَيْز مَنداد : فأما أن يحمل الرجل على مائة أو على جملة العسكر أو جماعة اللصوص والمحاربين والخوارج فلذلك حالتان : إن علم وغلب على ظنّه أن سيقتل من حمل عليه وينجو فحسن، وكذلك لو علم وغلب على ظنّه أن يُقتل ولكن سُينكى نِكاية أو سيبلي أو يُؤثّر أثراً ينتفع به المسلمون فجائز أيضاً . وقد بلغني أن عسكر المسلمين لما لقي الفرس نفرت خيل المسلمين من الفيلة، فعمد رجل منهم فصنع فيلاً من طينٍ وأنّس به فرسه حتى أَلِفه، فلما أصبح فرسه لا ينفر من الفيل فحمل على الفيل الذي كان يقدمها، فقيل له : إنه قاتلك . فقال : لا ضير أن

أُقتل ويُفتح للمسلمين. وكذلك يوم اليمامة لما تحصّنت بنو حنيفة بالحديقة، قال رجل من المسلمين[1]: ضعوني في الحجفة ، وألقوني إليهم، ففعلوا ، وقاتلهم وحده ، وفتح الباب.

قلت : ومن هذا ماروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أرأيت إن قُتلتُ في سبيل الله صابراً محتسباً ؟ قال : (فلك الجنة). فانغمس في العدو حتى قُتل . وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ، أُفْرِدَ يوم أُحُدٍ في سبعةٍ من الأنصار ورجلين من قريشٍ، فلما رَهِقُوه قال : (من يردّهم عنا وله الجنة) أو (من هو رفيقي في الجنة) فتقدّم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل. فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعة. فقال النبي ﷺ : (ما أَنْصَفْنَا أصحابَنا). هكذا الرواية « أنصفْنا » بسكون الفاء ، « أصحابنا » بفتح الباء، أي لم ندلّهم على القتال حتى قُتِلوا. وروي بفتح الفاء ورفع الباء، ووجهها أنها ترجع لمن فرّ عنه من أصحابه - والله أعلم - . وقال محمد بن الحسن : لوحمل رجل واحد على ألف رجلٍ من المشركين وهو وحده، لم يكن بذلك بأس إذا كان يطمع في نجاةٍ ، أو نكايةٍ في العدو ، فإن لم يكن كذلك فهو مكروه، لأنه عرّض نفسه للتلف في غير منفعةٍ للمسلمين ، فإن كان قصده تجرئة المسلمين عليهم حتى يصنعوا مثل صنيعه فلا يبعد جوازه ، ولأن فيه منفعةً للمسلمين على بعض الوجوه . وإن كان قصده إرهاب العدو، وليعلم صلابة المسلمين في الدين فلا يبعد جوازه. وإذا كان فيه نفع للمسلمين فتلفت نفسه لإعزاز دين الله وتوهين الكفر فهو المقام الشريف الذي مدح الله به المؤمنين في قوله : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم** ﴾ الآية، إلى غيرها من آيات المدح التي مدح

(١) هو البراء بن مالك ، أخو أنس بن مالك .

الله بها من بـذل نفسه. وعلى ذلك ينبغي أن يكـون حكم الأمر بـا لمعروف والنهي عن المنكـر أنه متى رجا نفعاً في الـدين فبذل نفسه فيـه حتى قُتل كان في أعلى درجات الشهداء . قال الله تعالى : ﴿ **وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصـابك إن ذلك من عـزم الأمور** ﴾. وقد رُوي عن عكرمـة عن ابن عباس عـن النبي ﷺ، أنه قال : (أفضـل الشهداء حمزة ورجل تكلم بكلمة حقٍّ عند سلطانٍ جائرٍ فقتله).

الثالثة : قـوله تعالى : ﴿ **وأحسنوا** ﴾ أي في الإنفاق في الطاعـة، وأحسنوا الظنّ بـالله في إخلافه عليكـم . وقيل ﴿ **وأحسنوا** ﴾ في أعمالكم بـامتثال الطاعات، روي ذلك عن بعض الصحابة[1].

رابعاً: وقال الطبري : حدثنـا ابن حميد ، قال : حدثنا حكـام ، عن عمرو ابن أبي قيس ، عـن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عـن ابن عباس : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ قال : ليس التهلكة أن يُقتل الرجل في سبيل الله، ولكن الإمساك عن النفقة في سبيل الله.

حدثني يعقوب بـن إبراهيم ، قال : حدثنا هشيـم، قال : أخبرنا إسماعيل ابن أبي خالد ، عـن عكرمة ، قال : نزلت في النفقـات في سبيل الله، يعني قوله : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾.

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا هشيم، قال : أخبرنا هشام، عن ابـن سيرين، قـال : سألـت عبيدة السلماني عـن ذلك ، فقـال : هو الرجـل يذنـب الذنـب فيستسلم، ويلقـي بيده إلى التهلكـة، ويقول : لا توبة له ، يعني قوله : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن .

قال أبو جعفر : والصواب مـن القول في ذلك عندي أن يقال : إن الله جلّ ثناؤه أمر بالإنفاق في سبيله بقوله : ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله**﴾ وسبيله : طريقه الـذي شرعة لعباده وأوضحه لهم. ومعنى ذلـك : وأنفقوا في إعزاز ديني الذي شرعته لكم، بجهاد عـدوكم الناصبين لكم الحرب على الكفر بي، ونهاهم أن يلقوا بأيديهم إلى التهلكة ، فقال : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾.

وذلك مثـل ، والعرب تقول للمستسلم لـلأمر : « أعطى فلان بيـديه» وكذلك يقال للمُمكّن من نفسه مما أُريد به : « أعطى بيديه ».

فمعنى قـوله : ﴿ **ولا تلقـوا بأيـديكم إلى التهلكـة**﴾، ولا تستسلمـوا للهلكـة ، فتعطوهـا أزمّتكـم فتهلكوا. والتـارك النفقـة في سبيل الله عنـد وجوب ذلـك عليه مستسلـم للهلكة بتركه أداء فـرض الله عليه في مـاله. وذلك أن الله جلّ ثناؤه جعل أحد سهام الصدقـات المفروضـات الثمانية « في سبيله» فقال : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين**﴾ إلى قوله ﴿ **وفي سبيل الله وابن السبيل** ﴾ - التوبة ٦٠- فمن ترك إنفاق ما لزمه من ذلك في سبيل الله على ما لزمه، كان للهلكة مستسلماً، وبيد يه للتهلكة ملقياً.

وكذلك الآيس من رحمة الله لذنبٍ سلف منه ، ملقٍ بيديه إلى التهلكة، لأن الله نهى عن ذلـك فقال : ﴿ **ولاتيأ سوا من روح الله إنـه لا ييأ س من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾ - يوسف ٨٧-.

وكذلك التـارك غزو المشركين وجهادهم في حال وجـوب ذلك عليه ، في حالة حاجة المسلمين إليه، مضيع فرضاً، ملقٍ بيده إلى التهلكة.

فإذا كـانت هذه المعـاني كلها يحتملها قـوله ﴿ **ولا تلقوا بـأيديكـم إلى**

التهلكة﴾، ولم يكن الله عـزّ وجلّ خصّ منهـا شيئاً دون شيءٍ، فـالصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله نهى عن الإلقاء بأيدينا لما فيه هلاكنا، والاستسلام للهلكـة - وهي العـذاب - بترك ما لزمنـا من فـرائضه. فغير جائزٍ لأحدٍ منا الدخول في شيءٍ يكرهه الله منـا، مما نستوجب بدخولنا فيه عذابه.

غير أن الأمر وإن كان كذلك ، فإنه الأغلـب من تأويل الآية : وأنفقوا أيها المؤمنون ، في سبيل الله، ولا تتركوا النفقة فيهـا، فتهلكوا باستحقاقكم - بترككم ذلك - عذابي . كما :

حدثني المثنّـى ، قال : حدثنا أبو صـالح ، قال : حدثنا معـاوية، عن علي بـن أبي طلحـة، عـن ابن عبـاس قـولـه : ﴿ **ولا تلقوا بـأيديكـم إلى التهلكة﴾** ، قال : التهلكة عذاب الله.

قال أبو جعفر : فيكون ذلك إعلاماً منه لهم - بعد أمره إياهم بالنفقة - ما لمن ترك النفقة المفروضة عليه في سبيله، من العقوبة في المعاد.

فـإن قـال قـائل : فلما جـاء إدخـال « البـاء » في قـولـه : ﴿ **ولا تلقـوا بأيديكم﴾** وقد علمـت أن المعروف مـن كلام العـرب « ألقيت إلى فـلان درهماً» دون « ألقيت إلى فلان بدرهم».

قيل : قد قيل إنها زيدت نحو زيادة القائل « الباء» في قوله : « جذبت بالثوب، وجذبت الثوب» و « تعلّقت به وتعلّقته » و ﴿ **تنبت بالدهن ﴾** - المؤمنون ٢٠ - وإنما هو تنبت الدهن.

وقال آخرون : « الباء » في قوله : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم ﴾** ، أصل للكنية. لأن كـل فعـل واقـع كني بـه، فهـو مضطر إليـها. نحـو قولك في رجـل

« كلّمته » فأردت الكناية عن فعلـه، فإذا أردت ذلك قلت : « فعلت به » قالوا : فلما كان « الباء » هي الأصل ، جاز إدخال الباء وإخراجها في كل « فعل » سبيله سبيل كُنيته.

وأما ﴿ التهلكة ﴾ فإنها « التفعلة » من « الهلاك »[1].

خامساً : قال ابن كثير : قال البخاري : حدّثنا إسحاق ، أخبرنا النضر ، أخبرنا شعبة عن سليمان ، سمعت أبا وائل عن حذيفة ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ قال : نزلـت في النفقة، ورواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الصباح عن أبي معاوية عن الأعمش مثله، قـال : وروي عن ابـن عبـاس ، ومجاهد ، وعكـرمـة ، وسعيد بـن جبير ، وعطاء ، والضحاك، والحسن ، وقتادة، والسُّدّيّ ، ومقـاتل بن حيان نحو ذلك، وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران ، قال : حمل رجـل من المهـاجريـن بالقسطنطينيـة على صف العـدو حتى خرقه ، ومعنـا أبو أيوب الأنصاري ، فقال ناس : ألقـى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيــوب : نحـن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينـا، صحبنا رسول الله ﷺ ، وشهـدنا معـه المشـاهد ، ونصرنـاه ، فلما فشـا الإسلام وظهـر ، اجتمعنا معشر الأنصـار نجيّاً ، فقلنـا : قد أكـرمنا الله بصحبـة نبيّه ﷺ ، ونصره ، حتـى فشا الإسـلام ، وكثر أهلـه ، وكنا قـد آثرنـاه على الأهلين ، والأموال ، والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما فنزل فينا ﴿ **وأنفقوا في سبيل ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾، فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال ، وترك الجهاد . رواه أبو داود ، والنسائي، وعبد بـن حميد في تفسيره ، وابن أبي حاتم، وابن جـرير ، وابن

(١) تفسير الطبري :

مردويه ، والحافظ أبو يعلى في مسنده، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه ، كلهم من حديث يزيد بن أبي حبيب به ، وقال الترمذي : حسن صحيح غريب ، وقال الحاكم : على شرط الشيخين، ولم يُخرّجاه . ولفظ أبي داود عن أسلم أبي عمران : كنا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى أهل الشام رجل : يريد « فَضالة بن عبيد» فخرج من المدينة صف عظيم من الروم ، فصففنا لهم فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا فصاح الناس إليه ، فقالوا : سبحان الله، ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب : يا أيها الناس، إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار ، إنا لما أعزّ الله دينه وكثُر ناصروه ، قلنا فيما بيننا : لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها، فأنزل الله هذه الآية. وقال أبوبكر بن عياش عن أبي إسحاق السبيعي ، قال : قال رجل للبراء بن عازب : إن حملت على العدو وحدي فقتلوني، أكنت ألقيت بيدي إلى التهلكة؟ قال : لا ، قال الله لرسوله ﴿ **فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك**﴾ وإنما هذه في النفقة، رواه ابن مردويه، وأخرجه الحاكم في مستدركه، من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق به ، وقال : صحيح على شرط الشيخين، ولم يُخرّجاه، ورواه الترمذي، وقيس بن الربيع عن أبي إسحاق عن البراء ، فذكره وقال بعد قوله : ﴿ **لا تكلف إلا نفسك**﴾ ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقي بيده إلى التهلكة ولا يتوب.

وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبي، حدّثنا أبو صالح ، كاتب الليث ، حدثني الليث، حدّثنا عبدالرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبي بكر بن نمير بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام أن عبدالرحمن بن

الأسود بن عبد يغوث ، أخبره أنهم حاصروا دمشق فانطلق رجل من أزد شنوءة ، فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل ، فعاب ذلك عليه المسلمون، ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص، فأرسل إليه عمرو فردّه ، وقال عمرو : قال الله: ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾.

وقال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، في قوله تعالى: ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾. قال : ليس ذلك في القتال، إنما هو في النفقة، أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله، ولا تلق بيدك إلى التهلكة.

قال حماد بن سلمة، عن داود ، عن الشعبي ، عن الضحاك عن بن أبي جبير، قال : كانت الأنصار يتصدّقون ، وينفقون من أموالهم ، فأصابتهم سنة، فأمسكوا عن النفقة في سبيل الله، فنزلت : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾.

وقال الحسن البصري : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾، قال : هو البخل.

وقال سماك بن حرب عن النعمان بن بشير ، في قوله : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾، أن يذنب الرجل الذنب فيقول : لا يُغفر لي ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾ رواه ابن مردويه، وقال ابن أبي حاتم، وروي عن عبيدة السلماني، والحسن، وابن سيرين، وأبي قلابة نحو ذلك، يعني نحو قول النعمان بن بشير ، أنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يُغفر له، فيلقي بيده إلى التهلكة، أي يستكثر من الذنوب فيهلك. ولهذا روى علي

ابن أبي طلحة، عن ابن عباس : التهلكة عذاب الله .

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير ، جميعاً حدّثنا يونس ، حدّثنا ابن وهب ، أخبرني أبو صخر عن القرظي محمد بن كعب، أنه يقول في هذه الآية : ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ قال : كان القوم في سبيل الله، فيتزود الرجل، فكان أفضل زاداً من الآخر ، أنفق البائس من زاده حتى لايبقى من زاده شيء، أحب أن يواسي صاحبه فأنزل الله ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾.

وقال ابن وهب أيضاً : أخبرني عبدالله بن عياش عن زيد بن أسلم في قول الله: ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ وذلك أن رجالاً يخرجون في بعوثٍ يبعثها رسول الله ﷺ ، بغير نفقة، فإما أن يقطع بهم ، وإما كانوا عيالاً، فأمرهم الله أن يستنفقوا من المشي. وقال لمن بيده فضل : ﴿ **وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾. ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله، في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصةً صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده، ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة ﴿ **وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾[1].

فهذا كلام أعلام المفسرين :

الطبري : المتوفّى عام ٣١٠ هـ.

ابن عطية : المتوفّى عام ٥٤٢ هـ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ؛ ابن كثير .

الفخر الرازي : المتوفّى عام ٦٠٧هـ.

القرطبي : المتوفّى عام ٦٧١هـ.

ابن كثير : المتوفّى عام ٧٧٤هـ.

ويفهم من كلام هؤلاء المفسرين أن هذه الآية ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ لم تنزل في الرجل الذي يقتحم العدو ، وحده، والعدو كثير ، ولا بالرجل يلقي بنفسه بين الأعداء في سبيل إرهابهم وإخافتهم، أو تقديم عملٍ لنصرة المسلمين، كما فعل البراء بن مالك ، رضي الله عنه ، بطلبٍ من المسلمين لإلقائه بين بني حنيفة في الحديقة، وقد لبىّ المسلمون للبراء طلبه بعد إصرارٍ فقاتل الأعداء ، وتمكّن من فتح باب الحديقة، ودخل المسلمون، ونصرهم الله. وإن هذا الإلقاء قد دبّ الذعر في نفوس الأعداء إذ شعروا أن المسلمين لايهابون الموت بل يُلقون بأنفسهم بين الأعداء، ويقتحمون عليهم، فهؤلاء يصعب قتالهم ، لأن الأعداء حريصون على الحياة، وهي ما لا يحرص عليه المسلمون .

وكما فعل البراء بن مالك أيضاً يوم فتح « تستر » إذ دخل ومجزأة بن ثور من مجرى المياه ، واستشهد مجزأة عندما وصل إلى العدو ، وخرج البراء فقاتل ، واستشهد ، وخرج المسلمون بعدها ، وكان نصر الله ، وفُتحت المدينة.

وكما فعل خالد بن الوليد وصحبه إذ صعدوا على أسوار دمشق بالحبال، وهبطوا على الروم، وقاتلوهم، وتمكّنوا من فتح الباب، واندفع المسلمون إلى الداخل، وكان نصر الله .

فإذا ألقى المسلم بنفسه مجاهداً بها في سبيل الله ، لتكون كلمة الله هي العليا، فنرجو من الله أن يكون هذا المسلم شهيداً. وكذا المسلم المؤمن الذي يُفجّر نفسه اليوم في سبيل إرهاب أعداء الله ونصرة المسلمين، فإذا كانت هذه نيته فهو في سبيل الله، ونرجو أن يكون من الشهداء.

أما الآية ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ فقد نزلت بشأن الذين يتركون النفقة في سبيل الله ، أو يتركون الجهاد في سبيله ، أو يُقدمون على ذنبٍ فييأسون من مغفرة الله ، فيُغرقون أنفسهم في المعاصي والآثام. أما إلقاء النفس في سبيل الله، محتسباً ثواب الله، ونصرة المسلمين لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله - إن شاء الله - شهيداً ، وعمله استشهاد - والله أعلم -.

الفصل السادس:

النفاق المعاصر

لم يكن في مكة في صدر الإسلام قبل الهجرة منافقون، لأن المسلمين كانوا مستضعفين وليس لأحدٍ حاجة أن يتزلّف لهم أو يُظهر النفاق حرصاً على رضاهم ، أو خوفاً منهم ، فلما قامت دولة الإسلام في المدينة وقويت شوكتها نجم النفاق.

بعد معركة بدر التي نصر الله فيها المسلمين على عدوهم، ومكّن لهم أجمع المنافقون كيدهم، وأعلن عبدالله بن أُبيّ بن سلول أن الأمر قد توجه، فأظهر إسلامه ، ودعا أتباعه لإظهار إسلامهم، واستمر عملهم الخفي لتهديم المجتمع الإسلامي، ونسف جذوره، فقد شعروا بمصيرهم ، وهم على علمٍ بما يُبطنون من حقدٍ ، وبما تخفي نفوسهم من شرٍّ ، فالإيمان لم يدخل قلوبهم ، وبقي في نفوسهم شيء يريدون أن يفعلوه ضد المسلمين عندما تتهيّأ لهم الفرص، وقد أظهروا الإسلام خوفاً وتخطيطاً، وعملوا بجانب اليهود عداوةً ومكراً .

وقوي الإسلام وانتشر ، وزال النفاق واندثر إذ لم يعد المسلمون يخشون منافقين، ولم تعد هناك ضرورة للسكوت عنهم، وبلغت القوة مداها، ثم أخذت تتراجع حتى عاد الضعف، ولم يعد أحد يخشى الضعف لينافق لأتباعه، ولكن إذا كان الضعف المادي هو المسيطر ، إلا أن الإسلام هو

السائد – ولله الحمد – وهو ثابت في النفوس ، وإن كان لا يُطبّق بالشكل المطلوب، إلا أن الراعي والرعية تتهيّب الخلاف، وتريد الظهور بالعمل والتقيّد به. وهنا يبرز نوع من النفاق يُظهر الراعي على نوعٍ من الالتزام ، وأن ما يرسم له يتّفق مع الخط السليم، وهذا لا يستطيع أن يقدّمه إلا رجل على درجةٍ من العلم، فيُغالط الناس بما يتكلم به ويُسجّله، لذا فقد احتضن بعض الرعاة أفراداً من الذين يُغالطون ، ورفعوهم ، وفسحوا المجال لهم للحديث والكتابة ، والتصريحات، وحلّ المشكلات ، وجعلوهم بطائن لهم، ومهّدوا لهم الطرق ، ومدّوا لهم الجسور ، وكانت لهم حصانة.

أشاعت البطائن أن اليهود شكّلوا مع المهاجرين ومع الأنصار مجتمعاً متماسكاً متآلفاً إثر الهجرة النبوية ، ولم يذكروا خيانات اليهود للمسلمين، من محاولة قتل رسول الله ﷺ، وتشكيل الأحزاب ضد المسلمين في المدينة، ودعم المنافقين و... وذلك تبريراً للسياسة الدولية التي تعمل للصلح بين اليهود الدخلاء وأهل البلدان المجاورة في هذه الأيام .

وعدّ بعض هذه البطائن الفئات الإسلامية الملتزمة خارجةً على النظام، مخلّةً بالأمن ، باعثةً للفساد ، وذلك مسايرةً للسياسة الدولية التي تتبنّى ذلك ، وتأييداً لسياسة بعض الطغاة من الرعاة ، وحقداً على هذه الفئات التي إن وُجدت لا تفسح المجال لهذه البطائن بالظهور إذ يبدو عُوارها، ويظهر نفاقها.

وكتبت هذه البطائن عن الجهاد فلم تُميّز بين أحكام المشركين وأحكام أهل الذمة ، ودمجت هذه الأحكام معاً باسم أحكام الكفار ، حيث الجمع أحياناً بالاسم ، إذ يشتركون بالكفر ، وذلك لأن المشركين لا مكان لهم في

ديار الإسلام ، والفرق الضالة تُصنّف ضمن هذه الفئة .

إن الردّ على هذه المغالطات وتبيان الحق لهو من الواجب ، وإذا أصاب من يفعل ذلك شرّ ، فنرجو من الله أن يكون أجره أجر الشهيد ، وعمله نوع من أنواع الجهاد . ومع ذلك فإنا ندعو لهم ولنا بالصلاح والهداية، ونتمنى لهم العودة إلى الصواب ، والتوبة النصوح إلى الله .